بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النبأ من الآية (١) إلى الآية (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولجميع المستمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [سورة النبأ:١-١٦].

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكارًا لوقوعها: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} أي: عن أي شيء يتساءلون من أمر القيامة؟، وهو النبأ العظيم يعني: الخبر الهائل المفظع الباهر.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ}**، التساؤل: عن أي شيء يتساءلون؟، عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً؟، وقد يأتي التساؤل بمعنى التحدث بينهم بالشيء، **{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}** [سورة الصافات:٢٧]، فهذا الموضع أعني قوله: **{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ}**، "عم" هذه موضوعة لطلب معرفة حقائق الأشياء، عن أي شيء، عن ماذا يتساءلون؟، فكأن المطلوب مجهول فيتساءلون عنه، فجعل الشيء العظيم **{عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}** الذي تعجز العقول عن إدراك كنهه بمنزلة المجهول، كأنه مجهول، **{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ}** عن أي شيء يتساءل هؤلاء الكفار؟ **{عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}**.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر أن هذا التساؤل عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعه، يتساءلون هل يقع هذا؟، هل يمكن أن تعاد الأجساد ثانية وتبعث؟، يقول: **وهو النبأ العظيم**، وهذا أحد القولين المشهورين في معنى الآية، أن التساؤل عن النبأ العظيم، وهو يوم القيامة، والقرينة التي تدل على ذلك هي أن السورة برمتها تتحدث عن يوم القيامة، عن البعث والجزاء والحساب، تتحدث عن أهوال ذلك اليوم وما يقع فيه من الأوجال، وما يكون لأهل الإيمان وللكفار من النعيم أو العذاب.

فموضوع السورة قرينة تُقوي قول من قال: إن النبأ العظيم الذي يتساءلون عنه هو يوم القيامة، السورة تتحدث عن هذا، والقول الآخر: إنه القرآن، النبأ العظيم هو القرآن، **{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}**، القرينة التي تقوي هذا القول أن البعث والنشور لا خلاف بينهم في أن ذلك غير واقع، وأنه مستبعد غاية الاستبعاد، فهم ينكرون ذلك، **{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}** [سورة ق:٣]،

فسيقولون: من يعيدنا؟، يقولونه على سبيل الاستبعاد، وقالوا: {تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [سورة النازعات:١٢]، فهذا كله يؤيد أن القول الذي هم مختلفون فيه -أو النبأ العظيم الذي اختلفوا فيه- هو القرآن، وقالوا: سحر، شعر، كهانة، أساطير الأولين، مختلق، أملاه عليه بعض الأعجمين، اختلفت أقاويلهم في القرآن واضطربت، {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [سورة الذاريات:٨-١٠]، فهم يتخرصون، ويطلقون مثل هذه الأوصاف على القرآن، وعلى من جاء بالقرآن -صلى الله عليه وسلم.

فهنا النبأ العظيم القول بأنه القرآن يؤيده أن الاختلاف واقع في أقوالهم فيه، بخلاف البعث، {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}، والقول بأنه القرآن قد يشمل القول الذي قبله أنه البعث، باعتبار أن البعث قد جاء تقريره في القرآن في مواضع كثيرة متكرراً، فيكون هذا القول أن المراد القرآن يشمل ويتضمن القول الأول، لكن يمكن لأصحاب القول الأول الذين قالوا: إنه القيامة والبعث والنشور أن يقولوا: إن الاختلاف الواقع ليس بين هؤلاء المشركين الذين أنكروه وذَكَرَ القرآن إنكارهم، السورة مكية، لكن في طوائف الكفار يوجد من كان يؤمن بالبعث، بل وجد أيضاً في أهل مكة من كان يؤمن بالبعث، مثلاً شعر أمية بن أبي الصلت مليء بذكر البعث وبتقريره، وهذا جاء في عدد من كلامهم في المنثور والمنظوم، كلام أهل الجاهلية، ولكن السمة الغالبة على هؤلاء هو إنكار البعث، فقد يقال: إن القليل أو النادر لا عبرة به، ومن ثَمّ فهم مطبقون على إنكار البعث بهذا الاعتبار، لكن ليس كل الكفار ينكرون البعث، ليس جميع الكفار، أهل الكتاب مثلاً يثبتونه، لكن لما كانت السورة مكية والخطاب كأنه يتوجه إلى هؤلاء قال من قال إن المقصود: القرآن، {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} يعني: القرآن، ابن كثير -رحمه الله- حمله هنا كما ترون على القيامة، وبعضهم يعبر بالبعث ولا فرق، كما يقول قتادة وابن زيد: البعث والنشور.

وقول ابن كثير -رحمه الله- هنا بأنه القرآن هو مسبوق إليه، قال به بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فهو قول مجاهد، واختلافهم كما وصفت، والأول أظهر، أي أنه البعث، والله أعلم.

قال قتادة وابن زيد: {النَّبَإِ الْعَظِيمِ}: البعث بعد الموت، وقال مجاهد: هو القرآن، والأظهر الأول لقوله: {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}.

يعني قوله -تبارك وتعالى-: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}، النبأ هو الخبر الذي له خطب وشأن، ومن ثم فهو أخص من مطلق الخبر، الخبر عام ينتظم ما له شأن، وما ليس له شأن، كل ذلك يقال له: خبر، وأما النبأ فلا يقال إلا للخبر الذي له أهمية، ولهذا يقال: جاء نبأ الحرب، جاء نبأ الجيش، ولا يقال: جاء نبأ حمار الحجام؛ لأن حمار الحجاب ليس له شأن، وإنما يقال: خبر حمار الحجام.

{الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} يعني: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر.

ثم قال تعالى متوعدًا لمنكري القيامة: {كَلا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ} وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد.

فهذه {كَلا} للإنكار، ويعبر بعضهم عنها بأنها للردع والزجر، كلا ليس الأمر كما يقولون، ليس كما يتوهمون، ليس كما يدعون، {كَلا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ}، سيعلمون وعيد الله أعداءه ما هو فاعل بهم، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، أو أنهم يعلمون حقيقة هذا النبأ الذي كذب به من كذب، أو تساءلوا على سبيل الاستبعاد لوقوعه، كلا سيعلمون أنه حق، أنه واقع لا محالة.

ثم شرع -تبارك وتعالى- يُبَيّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا}؟ أي: ممهدة للخلائق ذَلُولا لهم، قارّةً ساكنة ثابتة.

هذا كله مما يقوي أن المراد بذلك البعث والقيامة، فذكر دلائل البعث، دلائل القدرة، ثم ذكر بعد ذلك القيامة، {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} [سورة النبأ:١٧]، بعدما ذكر هذه الدلائل، فهذا كله يقوي أن المقصود القيامة، لكن الذي يشكل على هذا: هل وقع بينهم اختلاف في القيامة أو لا؟.

قال: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا} أي: ممهدة للخلائق ذلولاً لهم، قارّة ساكنة ثابتة، كما قال الله -عز وجل-: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً} [سورة البقرة:٢٢]، والمهاد ما يوضع للصبي، فهي بهذه المثابة يتقلبون عليها، ويتحولون، ويسافرون، وينامون، ويجلسون، ويبتغون مصالحهم ومعايشهم دون عناء ولا مشقة، فهي ساكنة لا تضطرب ولا تميد بهم، تصور لو كانت الأرض في اضطراب كيف يتنقل الناس؟ كيف ينامون؟، كيف يجلسون، إذا كانت وقعت اهتزازات لمدة ثوانٍ معدودة، لعلكم رأيتم في بعض المقاطع ما الذي يحصل للناس من الاضطراب، فهنا جعلها الله -عز وجل- بمنزلة المهاد الذي يكون للصغير، تتحقق عليها مصالحهم، وتقوم معايشهم، فهذا كله من دلائل قدرته.

{وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} أي: جعلها لها أوتادًا أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها.

ثم قال تعالى: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} يعني: ذكرًا وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [سورة الروم:٢١]، وقوله: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} أي: قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار، وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة الفرقان.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} بمنزلة الوتد وهو ما يثبت به الشيء، المسمار، فهي تثبت الأرض من أجل أن لا تميد ولا تضطرب.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} قال: يعني ذكراً وأنثى يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}، فهذا هو المتبادر في هذا السياق؛ لأنه سياق امتنان، يقول: جعل لكم ما تقوم به مصالحكم ومعايشكم، وما يحصل لكم به السكون والاستقرار، وجعل الأرض ممهدة، وجعل لها رواسي من فوقها، هذه الجبال تثبتها، وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً، جعلكم أزواجاً ذكراً وأنثى، كلمة الأزواج كما سبق في بعض المناسبات تأتي بمعنى الأصناف، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢] يعني: وأشباههم ونظراءهم، لكن هنا المتبادر أن المقصود الذكر والأنثى، بينما ابن جرير حمله على ما هو أعم من ذلك من الأصناف، قال: ذكراً وأنثى، طوالاً وقصاراً، وكذلك أيضاً ذوي دمامة وجمال، يعني جعلهم على صنفين، جعلهم على حالتين، لكن الأول هو المتبادر، والله أعلم.

قال: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} قال: أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش، الآن {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا}، السبات ما هو؟ هو يرجع إلى معنى الراحة، وأصل السبت يأتي لمعانٍ متعددة

منها القطع، ولهذا يوم السبت هو يوم انقطاع من الأعمال مثلاً عند اليهود، لا يعملون فيه، لا يزاولون أي عمل، كما قال الله -عز وجل- في خبر القرية الذين قص الله خبرهم، كانوا يعدون في السبت، {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ} [سورة الأعراف:١٦٣] فينقطعون من الأعمال والأشغال فلا يزاولون شيئاً، ولذلك لا يجوز للمسلمين أن يتركوا المزاولات والأعمال والتجارات والاكتساب في يوم من الأيام حتى يوم الجمعة، لكن بقاء الناس في إجازة يوم الجمعة مثلاً، هذا من أجل أن متطلبات الحياة في العصر الحديث، حيث الناس صاروا يزالون وظائف وما إلى ذلك يحتاجون إلى يوم يتفرغون فيه لأشغالهم وشئونهم الخاصة، فاليوم المناسب هو يوم الجمعة، من أجل أنه عيد، ومن أجل أنه فيه صلاة الجمعة، وما إلى ذلك؛ لئلا يُشغل الناس عن الصلاة، لكن لا يجوز للناس أن يجعلوا من يوم الجمعة مثلاً يوماً للانقطاع الكامل عن كل الأعمال، المتاجر لا تفتح، المستشفيات لا تفتح كما هو شأن اليهود إلا ما يدخل في حيز الضرورات، طوارئ يعني، وإلا تقفل الأسواق وما إلى هذا، هذا لا يجوز أن يفعله المسلمون.

فأخبر الله -عز وجل- أنه جعل نومنا سباتاً، قال: أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة، فهنا ركب المعنى من هذين، القطع، قطعاً للحركة؛ لتحصل الراحة، وتجد عبارات أهل العلم مقاربة تدور حول هذا المعنى في تفسير هذه الآية، كما يقول ابن جرير: السبات السكون، ولذلك سمي يوم السبت سباتاً؛ لأنه يوم راحة ودعة، فهذا ترجع إليه عبارات أهل العلم، فإن أصل هذه المادة "السين والباء والتاء" يرجع إلى معنى القطع، والمقصود هنا من السياق الانقطاع الذي تحصل به راحة الأبدان، فيستريحون من العناء، من الأعمال، من الأشغال وما إلى ذلك، أي راحة لأبدانكم، وتجد أصحاب المعاني مثل الزجَّاج يقول: أنْ ينقطع عن الحركة والروح في بدنه، أي: جعلنا نومكم راحة لكم، أي: نائم، انقطع عن الحركة، روحه ونفسه يتردد ولكنه ساكن، فهذا يرجع إلى ما قبله، وهكذا قول البعض: جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم، كما يقوله ابن الأنباري، فهذا يرجع إلى ما سبق، ولا يبعد منه قول من قال: إن ذلك بمعنى التمدد، رجل مسبوت الخلق، أي ممدوده، ممدود الخلق، الرجل إذا أراد أن يستريح تمدد، فالتمدد يدل على الاسترخاء، فهو يرجع إلى معنى الراحة كذلك {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا}، فيحصل للبدن وللنفس الاستجمام، فهذه نعمة يمتن الله -عز وجل- بها، وابن فارس -رحمه الله- أعاد المعنى لهذه المادة "السين، والباء، والتاء" إلى أصل واحد يدل على الراحة والسكون، مع أن العلماء يذكرون لها في كتب اللغة معاني أخرى، فالسبت: الفرس الذي لا يسبق، والعالم الذي لا يجارى، كل هذه تأتي لمعنى، لكن هنا السياق يدل على الراحة والاسترخاء، وهذا يدل على أن قلب الناس للحال فيكون ليلهم نهاراً ونهارهم ليلاً أن هذا عكس للفطرة، وهو قلب لهذه النعمة، ورفض لها، وكلام الأطباء معلوم في أثر السهر، وحاجة الجسد والغدد التي لا تفرز إلا في ساعات الليل أن هذا أمر لابد منه للجسم ولعافيته، وآثار السهر كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى- على أحد الأقوال {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [سورة الفتح:٢٩]، في الكلام على الأمثال في القرآن، فهذه السيما قال بعض السلف: المقصود ما يظهر عليهم من الصفرة والتغير والشحوب بسبب السهر، لكن السهر في قيام الليل، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [سورة السجد:١٦]، فهذا أحد المعاني هناك، وسيأتي الكلام عليه -إن شاء الله-، ولكن لا شك أن السهر يؤثر، ويعرف ذلك من هيئة صاحبه، ومن وجهه، فهو مضر، ولا يلجأ الإنسان

إليه إلا لضرورة، لكن تحول الحياة اليوم بهذه الطريقة لا شك أنه خطأ، وأنها قضية تحتاج إلى التفات وإلى معالجة، وإعادة نظر، ولذلك تجدون في البيئات الريفية الذين ينامون من بعد صلاة العشاء -والآن قد تغيرت أيضاً حتى أحوال هؤلاء- تجد أن هؤلاء يقومون في غاية النشاط قبل صلاة الفجر، وأن أجسامهم أصح، ونشاطهم أصح، بينما تجد اليوم الواحد منا ينام النهار، ويقوم وهو يتأوه، يشعر أن بدنه في غاية الإنهاك والتعب من النوم، وقد لا يحصل به غناء للبدن، فهذه نعمة يمتن الله -عز وجل- بها على الناس، فاللائق هو أن توضع الأمور في نصابها الصحيح، وأن ينام الناس في الليل وأن يستيقظوا في النهار، جعل النهار معاشاً؛ ولهذا من أراد الاكتساب والرزق فإن مزاولة ذلك في النهار أدعى لتحصيله، وتحقق مطالبه من الظفر والربح والنجاح في تجارته وأعماله؛ لأن الله جعل النهار معاشاً، وقل مثل ذلك في طلب العلم، فهو من الرزق أيضاً، فجعْلُ ذلك في النهار هو الصحيح، وهو الذي يرجى أن يحصل أثره وعائدته على صاحبه، وهذا الانقلاب سبّب ضموراً في الأوقات، فصار الإنجاز ضعيفاً، وسبّب أيضاً ضعفاً في الأبدان فأنهكها، كما أن ذلك أيضاً يقلق النفوس، والنفس مرتبطة بالبدن غاية الارتباط، فإذا لم يحصل للإنسان الراحة المطلوبة بدأ بعد ذلك تنتابه الآلام والمتاعب النفسية، فهذا أحد أسباب ما يعانيه الناس اليوم من المتاعب النفسية والضيق والقلق إلى آخره، انقلاب الفطرة، انعكاس الفطرة، فالله ركب هذه النفوس وهذه الأبدان تركيباً معيناً، وما يؤثر في الأبدان يؤثر في النفوس غالباً، والعكس صحيح، تعرف الإنسان الذي عنده معاناة نفسية من هيئته، الحزين تعرفه من هيئته، والفَرِح تعرفه من هيئته، وهكذا.

فمثل هذه الأشياء لابد من الالتفات إليها ومراعاتها، واليوم استوى الناس في القرى والمدن من هذه الحيثية، في بعض البلاد قبل عشر سنوات أو أقل إذا جاءت الساعة الخامسة عصراً بالكثير كأقصى حد -يعني أكثرهم الساعة الرابعة- تقفل الأسواق، فإذا جاء المغرب هدأت الحركة، بعد المغرب لا يكاد يخرج أحد في الطرقات على كثرتهم، يصلون إلى أكثر من مائتين وثلاثين مليوناً لا تكاد ترى من يمر في الطرقات، لا تكاد ترى في الطرقات إلا السيارة بعد السيارة نادراً، أو الدراجة النارية، فإذا كان بعد الفجر رأيت الحركة بدأت تدب في أوساط هؤلاء الناس، وبعد الفجر ترى الجموع تخرج، إن كان يوم إجازة رأيت الصغار والكبار يذهبون إلى الملاعب المتفرقة في كل ناحية بعد الفجر، وهذا يذكرك تماماً بمثل هذه الآيات، كيف جعل الله -عز وجل- الليل سكناً، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ} [سورة يونس:٦٧]، وجعل النهار بهذه المثابة {مَعَاشًا}، مبصراً، وتغيرت هذه الأحوال أيضاً هناك، وصارت الحال مشابهة لما عندنا، فتأتي في الساعات المتأخرة من الليل وتجد الناس كأنهم في الصباح.

قال هنا: لتحصل الراحة من كثرة التردد والسعي في المعايش، يعني {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} أي: نُلبسكم ظلمته، يغشاكم كاللباس، {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا}، يغشاكم كما يغشاكم اللباس، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، فإذا كان يغشاهم بهذه المثابة فهذا يعني أنه يكون محلاً للسكون، فمن فسره بالسكون فإن ذلك يرجع إلى هذا المعنى، يغشاهم بظلامه فتسكن الحركة، فيحصل للنفوس الهدوء والسكون.

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} أي: **يغشى الناسَ ظلامُه وسواده، كما قال:** {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [سورة الشمس:٤].

يغشى: يعني يغشى بظلامه، أرخى سدوله، فأقسم الله -عز وجل- به في هذه الحال؛ لأنه مظهر من مظاهر العظمة، فكل هذا من دلائل القدرة، قدرته -تبارك وتعالى- على البعث، صرف هذه النيّرات، وصرف هذه الأفلاك، وصرف هذا الكون بهذا التصريف العجيب، واليوم توجد في بعض المقاطع صور حقيقية لحركة الليل، حيث يغشى النهار، بحيث إنها عُملت لها عمليات تسريع شديدة، فهي صورة حقيقية، تجد الليل على الكرة الأرضية يتبع النهار، {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يس:٤٠]، {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [سورة الزمر:٥].

وقال قتادة في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} أي: سكنًا.

يعني هذا أيضاً قال به غير قتادة، جماعة مثل سعيد بن جبير، والسدي، سكناً، هذا لا يعارض ما سبق، يعني: كأنه تفسير بالمعنى، فاللباس معروف، يعني: يغشاهم بظلامه فيكون بمنزلة اللباس، يغطيهم بظلامه، وهذا يقتضي السكون، فتهدأ الحركة، فيكون هذا من قبيل التفسير على المعنى، كما قال الله -عز وجل-: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [سورة الأنعام:٩٦]، تسكن فيه النفوس، يغشاهم الظلام كاللباس، فتسكن الحركة، {لِتَسْكُنُواْ فِيهِ} [سورة يونس:٦٧].

{وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} أي: جعلناه مشرقا مُنيرًا مضيئًا، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات، وغير ذلك.

يعني موضعاً للمعاش، تعيشون، تتقلبون، تطلبون المعايش فيه، فتفسيره هنا: جعلناه مشرقاً نيّراً هذا باعتبار مقتضى ذلك كونه معاشاً، وإلا فليس هذا معنى معاش، لكن كيف جعله معاشاً؟ جعله مبصراً نيّراً من أجل طلب المعايش، وركّب الله هذه الأبدان كما سبق بهذا التركيب، ففي النهار تكون مهيأة للانطلاق والحركة والعمل، لكن بعد أن تنال حظها من الراحة، فيتجدد نشاطها، فتعاود العمل من جديد، لكن إذا عُكست القضية صار النهار محلاً للإرهاق والتعب، والذبول، وضعف النشاط والحركة، الفطرة التي فطر الله -عز وجل- الناس عليها، هو ما ذكره الله -عز وجل- هنا.

وقوله تعالى: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} يعني: السماوات السبع، في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات؛ ولهذا قال: {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم.

{وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا}، هذه الشمس بمنزلة السراج الذي يضيء هذا العالم، والوهاج يقول هنا: يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم، الوهج كما يقول مقاتل: هو الذي يجمع بين الإضاءة والحرارة، متوهجة، فالشمس بهذه المثابة، هي سراج وهاج، هي متقدة تتوهج بالحرارة، وأيضاً تضيء وتنير هذا الكون الذي نشاهده.

وابن جرير -رحمه الله- يفسر وهاجاً، يقول: أي وقّاداً مضيئاً، وهذه المعاني متقاربة لا إشكال فيها، سراجاً وهاجاً.

وقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا}، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {مِنَ الْمُعْصِرَاتِ} أي: من السحاب. وكذا قال عكرمة أيضاً، وأبو العالية، والضحاك، والحسن، والربيع بن أنس، والثوري، واختاره ابن جرير.

وقال الفراء: هي السحاب التي تَتَحَلَّب بالمطر ولم تُمطر بعدُ، كما يقال امرأة مُعصِر إذا دنا حيضها ولم تحض، وهذا كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ} [سورة الروم:٤٨] أي: من بينه.

يعني من ثقوبه، هنا قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}، قال: يعني السحاب، وقيده بعضهم كما قال الفراء بالسحاب الذي لم يمطر بعد، يعني هو ممتلئ ولكنه لم يمطر، وهذا المعنى الذي قاله الفراء سبقه إليه جماعة من السلف كالربيع وسفيان وأبي العالية والضحاك.

هنا يقول: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا} يعني: السحاب، قال: واختاره ابن جرير، يعني السحاب مطلقاً.

عبارة ابن جرير: هي السحاب، وقيدها: التي قد تحلبت بالماء، يقول: هي السحاب أو هي التي قد تحلبت بالماء من السحاب، يعني ليس مطلق السحاب، وإنما الذي تحلّب بالماء.

والمشهور أن المعصرات هي السحاب، لكن بعضهم يقيدها بالتي قد امتلأت من المطر ولكنها لم تمطر بعد، وبعضهم يطلق ذلك، ولا إشكال في أن المقصود بالمعصرات هي السحاب ذات المطر، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا}.

لكن بعض السلف فسره بالرياح، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ} قالوا: الرياح، وهذا منقول عن مجاهد ومقاتل، وقتادة، قالوا: الرياح، وأنها تسمى معصرات، يقال: أعصرت الريح إذا أثارت العجاج، وهذا ذكره بعض أهل اللغة كالأزهري، قال: هي الرياح ذوات الأعاصير، بأي اعتبار؟، باعتبار أن هذه الرياح هي التي تستدر المطر، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا}، فالرياح سبب، هي التي تستدر المطر، وهي التي تلقحه، وهي التي تسوقه، وتجمعه، وتؤلف بينه حتى يصير متراكماً متراكباً، هذا باعتبار أن "مِن" في {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ} بمعنى الباء، أنزلنا بالمعصرات يعني: السحاب {مَاء ثَجَّاجًا}، ومعلوم أن حروف الجر تتناوب، لكن المتبادر من السياق هو السحاب، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}، وليست "من" هنا بمعنى الباء، وإنما هي على بابها، وهذا الأصل في حروف المعاني، أن يبقى الحرف على أصله، فلا يقال بتعاورها إلا إذا لم يمكن حمل ذلك على المعنى المتبادر لكل حرف؛ لأن كل حرف له معنى متبادر، يعني "في" مثلاً للظرفية، "على" للعلو، "من" ابتداء الغاية مثلاً، إلى غير ذلك من معانيها، فهذا باعتبار أنها بمعنى الباء، يعني إذا فسر بالسحاب؛ ولهذا فإن بعض أصحاب المعاني -معاني القرآن- قال: إن هذه المعاني يمكن أن تجتمع وتلتئم، ذكر هذا النحَّاس، قال: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ} يعني: ذوات المعصرات، {مَاء ثَجَّاجًا}، فهذه المعصرات هي السحب تسوقها الرياح، وتكون سبباً لنزول المطر، وهذا لمن أراد أن يجمع هذه المعاني، ولا شك أن من معاني المعصرات في كلام العرب السحب، ومن معانيها الرياح، فهؤلاء أئمة في اللغة فسروها بالرياح، فصار لها

هذا المعنى وهذا المعنى، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}، السياق هنا يدل على أحد هذين المعنيين وهو السحاب، أنزلنا من السحاب المشحون بالمطر {مَاء ثَجَّاجًا}.

والمبِّرد يقول: سحاب معصِر أي: ممسك للماء يعتصر منه يعني شيئاً بعد شيء، مثلما تقول: عصرت الثوب، فأنت بذلك تستنطف ما فيه من الماء، وجاء عن أبي بن كعب، والحسن، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان بأنها السماوات، لاحظ هؤلاء جماعة من السلف فسروا المعصرات بالسماء، أو السماوات، هذا يمكن أن يوجه فيقال: باعتبار أن السحاب يقال له: سماء، وكل ما علاك فهو سماء، والشاعر يقول:

إذا نزلَ السماءُ بأرضِ قومٍ *** رعيناه ولو كانوا غِضابا

إذا نزل السماء يعني: السحاب، المطر، وأحاديث استراق السمع إذا تتبعت المرويات الواردة فيها تجد في بعضها أن الملائكة تنزل في العنان، يعني السحاب، مع قول الجن: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} [سورة الجن:٩]، يعني السماء، فدل الحديث على أن الملائكة تنزل إلى السحاب، وأنهم مع قولهم: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} [سورة الجن:٨]، {ثَجَّاجًا}، الثجاج هو الكثير المنصب بكثرة المتتابع، فالكثرة مع التتابع هذا هو الثجاج، وعبارات أهل العلم في ذلك متقاربة ترجع إلى هذا المعنى، {مَاء ثَجَّاجًا} كثيراً متتابعاً، ينصب بكثرة وتتابع، وهذا كله من دلائل قدرته -تبارك وتعالى.

في الأصل ابن كثير يقول: **والأظهر أن المراد بالمعصرات السحاب، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ...} الآية.**

ما ذكره هنا لا ينافيه، يعني هو اقتصر على هذا، هو ذكر لكنه رجّح السحاب، فكونه في المختصر يقتصر على هذا لا إشكال؛ لأنه هو اختيار ابن كثير.

وقوله -جل وعلا-: {مَاءً ثَجَّاجًا} قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس: {ثَجَّاجًا} منصباً، وقال الثوري: متتابعًا، وقال ابن زيد: كثيراً.

وفي حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنعتُ لك الكُرسُفَ)) -يعني: أن تحتشي بالقطن-: قالت: "يا رسول الله، هو أكثر من ذلك، إنما أثج ثجًا"[1]، وهذا فيه دَلالة على استعمال الثَّج في الصبّ المتتابع الكثير، والله أعلم.

فاجتماع هذه المعاني هو معنى الثجاج، الكثرة والتتابع، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، جمعوا هذه العبارات للسلف وعبروا بهذه العبارة، {مَاء ثَجَّاجًا}، والمطر القليل كذلك نعمة، ولكن المنة تكون أعظم بالأول، الماء الكثير المتتابع، هذا الذي يحصل به رواء الأرض ومن المنافع ما لا يخفى، تسيل منه الأودية

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب من قال: إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، برقم (٢٨٧)، والترمذي، أبواب الطهارة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، برقم (١٢٨)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرائها قبل أن يستمر بها الدم، برقم (٦٢٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٧٤٧٤)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف"، وحسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود، برقم (٢٩٣)، وفي صحيح الجامع، برقم (١٥١٠).

وما إلى ذلك، لا من المطر اليسير القليل، والناس يستبشرون بكثرة المطر وتتابعه، وليس بالشيء القليل الذي يكون كالدِّيَم.

وقوله تعالى: {لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} أي: لنخرجَ بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك {حَبًّا} يدخر للأناسي والأنعام.

فلا حاجة لتقييد الحب بما يأكله الناس؛ لأن من الحبوب ما يأكله الأنعام، الشعير مثلاً فيما سبق كان الناس يأكلونه، ويخبزون منه، واليوم هو طعام للأنعام، فالحب يكون للأناسي والأنعام، {لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا}، وكذلك النبات، قال: **أي: خضراً يؤكل رطباً**، ابن جرير يقول: الكلأ الذي يرعى من الحشيش والزروع، وهنا النبات لا يختص بهذا، النبات هو خلاف الحب، ما ينبت مما يأكله الناس والأنعام أيضاً.

{وَنَبَاتًا} أي: خضرًا يؤكل رطباً، {وَجَنَّاتٍ} أي: بساتين وحدائقَ من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا؛ ولهذا قال: {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} قال ابن عباس، وغيره: {أَلْفَافًا} مجتمعة، وهذا كقوله تعالى: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الرعد:٤].

هنا نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير {أَلْفَافًا} قال: مجتمعة، وفسره طائفة من السلف بأنها يلتف بعضها على بعض، تتشابك أغصانها، وتلتف لتشعبها، فيكون تفسير ابن عباس -رضي الله عنهما- هنا {أَلْفَافًا} قال: مجتمعة، يكون من قبيل التفسير على المعنى، باعتبار أنها إذا كانت ألفافاً تتشابك أغصانها وتلتف.. إلى آخره، يدل على اجتماعها وتقارب أشجارها، {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} كثيرة الأشجار، كثيرة الأغصان والفروع المتشابكة، يلتف بعضها على بعض لاجتماعها وقربها، فيكون تفسير ابن عباس من قبيل التفسير على المعنى، يعني مجتمعة، و{أَلْفَافًا} يلتف بعضها على بعض ، هذا هو التفسير على الظاهر، معنى كلمة "ألفافاً"، فلا إشكال في هاتين العبارتين، فذلك يرجع إلى معنى واحد بهذا الاعتبار، بهذه الطريقة نستطيع أن نلائم بين الأقوال ونجمع بينها، ولا نحتاج إلى الترجيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النبأ من الآية (١٧) إلى الآية (٣٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلعلي ألخص ما في المجلس الأول من تفسير سورة النبأ، فأقول: هذه السورة النازلة بمكة تتحدث عن اليوم الآخر، عن البعث والنشور، وأهوال القيامة، وأوجالها، وعن أحوال الناس في ذلك اليوم، فالله -تبارك وتعالى- صدر هذه السورة بهذا الاستفهام، **{عَمَّ يَتَسَاءلُونَ}** [سورة النبأ:١] عن أي شيء يتساءل هؤلاء الكفار المكذبون بالبعث؟، ثم جاء الجواب بعده **{عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}** [سورة النبأ:٢] عن الخبر الذي له خطر وشأن، وهذا النبأ العظيم هو البعث والنشور الذي يكذبون به، وتتحدث عنه هذه السورة، أو عن القرآن الذي تفرقت فيه مقالاتهم، **{الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}** [سورة النبأ:٣] اختلافهم في البعث والنشور باعتبار أن البعث آمن به أهل الإيمان وبعضٌ من أهل الجاهلية، وهم قلة، وأكثرهم كان مكذباً بذلك، وأما القرآن فاختلافهم فيه ظاهر، فهم مجمعون على الكفر به، ولكن أقوالهم فيه تنوعت وتفرقت، **{كَلَّا}** ليس الأمر كما يقولون، بل سيعلمون حقيقة ذلك حينما يعاينونه فيكون بالنسبة إليهم من قبيل عين اليقين، بل من قبيل حق اليقين، حينما يصيرون في ذلك، فإذا مات الإنسان علم حقيقة ما كان عليه، وعلم ما سيصير إليه، وتكشفت أمامه الحقائق التي كان يجادل بها أو يكابر أو يؤمن، ثم إذا جاءت القيامة انتقل إلى حق اليقين فصار في عرصاتها يعايشها لحظة بلحظة، **{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ}** [سورة الأعراف:٥٣] يعني: وقوع ما أخبر به، **{يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}** [سورة الأعراف:٥٣]، فعندئذ يعرفون، ولا يبقى للمكابرة مجال.

{ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} [سورة النبأ:٥]، سيعرفون حقيقة ذلك، ثم ذكر الدلائل على قدرته -تبارك وتعالى- على بعث الأجسام، وإعادة الناس من جديد، **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا}** [سورة النبأ:٦] ممهدة لكم، لا تضطرب، ولا تتحرك، تتقلبون فيها، وتبتغون معايشكم، **{وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}** [سورة النبأ:٧] كالأوتاد التي تكون للخيمة، تثبتها، فلا تزعزعها الرياح، **{وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}** [سورة النبأ:٨] من ذكر وأنثى، أو جعلكم على أصناف فهذا شقي وهذا سعيد، وهذا طويل وهذا قصير، وهذا مؤمن وهذا كافر، وهذا صحيح وهذا عليل، وهذا أعجمي وهذا عربي، وهذا كريم وهذا بخلافه، إلى غير ذلك من أحوال الناس، **{وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا}** [سورة النبأ:٩] راحة لأبدانكم، وقطعاً للتعب والعناء والنَّصَب الذي يكون بسبب التقلب والأعمال والمزاولات التي تكون في وقت معاشكم في النهار، **{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا}** [سورة النبأ:١٠] يكسوكم ويغطيكم بظلامه، فعندئذ تهدأ النفوس وتسكن الحركة، ويكون ذلك محلاً صالحاً للنوم، ولراحة الأجسام، **{وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}** [سورة النبأ:١١]، جعلناه بحال وصفة يصلح للتقلب في المعايش، جعله مبصراً، جعل الشمس تشرق في أوله وتغرب في آخره، وذلك أن النهار يبدأ من طلوع الشمس إلى غروبها، وأما اليوم فيبدأ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فجعل النهار بهذه الصفة من أجل أن تتحقق المصالح، قال: **{وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}** [سورة النبأ:١٢]، سبع

سماوات قوية، محكمة البناء، ليس فيها خلل، وليس فيها ضعف، {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ} [سورة الملك:٣-٤] لا يرى شيئاً من عيب وضعف ونقص وشقوق وتصدع، كما يوجد في الأبنية، كما أنها لا تفنى ولا تبلى على مر الدهور والقرون والأزمان المتطاولة، بخلاف الأبنية في الدنيا مهما كانت قوتها، ولكن هذه السماء تتغير أحوالها حينما يريد الله -عز وجل- ذلك إذا قامت القيامة، {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} [سورة النبأ:١٣] بنى هذه السماوات وجعل فيها هذا السراج وهو الشمس، يتوهج بالحرارة والإضاءة، فهو يتوقد، وقّاد يملأ هذا الكون على سعته بهذه الإنارة والإضاءة، فلا يحتاجون معها إلى مولدات كهربائية وأشعة وأنظمة للإضاءة وما إلى ذلك، فإن ذلك جميعاً لا حاجة إليه ولا فائدة فيه إذا طلعت الشمس، فلا نور معها من هذه الأنوار التي يصنعها الناس، {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} سراج واحد يكفي، يملأ هذا الكون على سعة أرجائه بهذا النور، كما نشاهد، وهذه نعمة عظيمة من الله -عز وجل- يمتن بها على عباده، كم يحتاجون لو لم تكن الشمس، كم يحتاجون من أجل عافية الأبدان إذا تعطلت أشعة الشمس، كم يحتاجون من أجل الإبصار، وينفقون الأموال الطائلة من أجل ذلك، كم تتعطل من المصالح والطرق والبلاد والمنافع، وكم يحتاجون من أجل النبات؟ لو أن الشمس لم تطلع فإن النبات يموت، ولا تخرج هذه الثمار التي يقتاتون عليها، إلى غير ذلك من المنافع، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا} [سورة النبأ:١٤]، أنزلنا من هذا السحاب المثقل المترع بالمطر، أنزلنا منه ماءً متتابعاً منصباً كثيراً، {ثَجَّاجًا}، من أجل: {لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا} [سورة النبأ:١٥]، هذه بعض فوائده، وإلا ففوائد المطر كثيرة جداً، والله -تبارك وتعالى- قد يذكر فائدة في مقام وذلك لا ينفي غيرها من المنافع والفوائد، قال: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا}، الحب بجميع أنواعه مما يطعمه الإنسان ويطعمه الحيوان، {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [سورة النبأ:١٦]، جنات ذات أشجار تُخرج أنواع الثمار من النخيل والأعناب، وسائر الأشجار والفواكه التي نعرفها والتي لا نعرفها، فهذه الأشجار كثيفة، مجتمعة، متقاربة، يلتف بعضها على بعض لكثافتها، وهذا لا شك أدل على القدرة، وأبلغ في الامتنان، بخلاف ما إذا كانت شجرة هناك وشجرة هناك، {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}.

ثم بدأ بالحديث عن يوم الفصل بعد أن ذكر دلائل القدرة على بعث الأجسام، فإن الذي أوجد هذه الأمور وأنزل المطر، وأخرج النبات، فهذا كإحياء الأجسام من جديد، فهو مشهد نشاهده ويتكرر صباح مساء، ينزل المطر ويخرج النبات، هذه الأرض لم يكن فيها نبات، كانت قاحلة، فمن أين جاء هذا النبات؟، فالذي أخرج النبات قادر على أن يخرج الموتى.

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً * إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً * إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً * إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَاباً} [سورة النبأ:١٧-٣٠].

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله -عز وجل-، كما قال: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ} [سورة هود:١٠٤].

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، يوم الفصل قيل له ذلك؛ لأنه يُفصل فيه بين الخلائق، يحكم الله -عز وجل- بينهم فيما هم فيه يختلفون، يفصل بين الظالم والمظلوم، ويفصل بين أهل الإيمان وغيرهم من الطوائف الكافرة المكذبة بالله -تبارك وتعالى-، وبرسله -عليهم الصلاة والسلام-، فالله يفصل في هذا اليوم {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، يفصل بين الخلق، {كَانَ مِيقَاتاً} يعني: ميقاتاً لِمَا جعله الله -عز وجل- لهؤلاء المكذبين بالبعث، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: ميقاتاً لحسابهم وجزائهم وعذابهم.

وابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **مؤقت بأجل معدود لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يَعلم وقته على التعيين إلا الله -عز وجل.**

وبعضهم يقول: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً} يعني: للتوقيت، يعني: آخر الدنيا وبداية الآخرة، {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، تُوقّت به الدنيا وتنتهي عند هذا الحد، تتوقف، يبدأ فصل جديد، ومرحلة جديدة، أبدية، سرمدية، وقيل: حد للخلائق ينتهون إليه، إلى يوم القيامة، فهم مؤقتون إلى ذلك اليوم، مؤجلون لذلك اليوم، فيحصل فيه النعيم، والعذاب، والحساب، والجزاء، وما إلى ذلك، {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، فيوم الفصل يوم مؤقت بأجل معدود، والله -عز وجل- يقول: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [سورة هود:١٠٤-١٠٨]، فالله -تبارك وتعالى- وقّته بوقت لا يتقدم ولا يتأخر، لا يتقدم من أجل مطالبة هؤلاء بمجيء هذا اليوم، متى هذا اليوم الذي تعدنا به؟، ولا يتأخر من أجل قول هؤلاء الكفار الذين صاروا أسرى لأعمالهم في قبورهم، ربّ لا تُقم الساعة، ربّ لا تُقم الساعة، فلا يتقدم ولا يتأخر، {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، مؤقتاً لا يتغير موعده ولا يعلم وقته إلا الله -تبارك وتعالى-، وكونه مؤقتاً لا ينافي قول من قال: إنه توقيت آخر الدنيا، يعني نهاية الدنيا لأجل، لوقت محدد، فذلك يوم القيامة، وهكذا من قال: ميقاتاً للجزاء والحساب لهؤلاء الناس، فكل ذلك في يوم محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، فهو ذو وقت معلوم محدود، وهم مؤقتون لهذا اليوم الذي هو يوم الفصل.

{يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً} قال مجاهد: زُمَراً زُمَراً، قال ابن جرير: يعني تأتي كل أمة مع رسولها، كقوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [سورة الإسراء:٣١].

وروى البخاري في تفسير قوله: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً} **عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بين النفختين أربعون)) قالوا: أربعون يوماً؟ قال: "أَبَيْتُ"، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: "أبيتُ"، قالوا: أربعون سنة؟ قال: "أبيتُ"، قال: ((ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبتُونَ كما ينبتُ البقلُ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى، إلا عظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذنَب، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة))**[1].

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} [النبأ:١٨]: زُمَرًا، برقم (٤٩٣٥)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، برقم (٢٩٥٥).

{يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ}، الصور: قرن ينفخ فيه الملَك، والمشهور أنهما نفختان: نفخة الصعق، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة الزمر:٦٨]، هذه النفخة يموت فيها جميع الخلائق إلا من شاء الله، والنفخة الثانية هي نفخة البعث، يبعثون، وبعض أهل العلم يقول غير هذا، فمنهم من يجعل النفخ في الصور ثلاث مرات بناءً على قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة النمل:٨٧]، فهذه نفخة الفزع، فقالوا: هناك نفخة هي نفخة فزع، واختلفوا في وقتها هل هي قبل نفخة الصعق؟، يعني يحصل لهم الفزع ثم تأتي نفخة الصعق، ثم بعد ذلك تأتي نفخة البعث، وبعضهم يقول: إن نفخة الفزع تكون بعد ذلك، يعني بعد البعث، فيصيبهم الفزع، وبعضهم يزيد في ذلك فيقول: هناك نفخة رابعة، وهي نفخة الصعق، وهي غشية وليست موتة، ويستدلون على هذا بالحديث: ((الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟))[٢]، والمشهور عند جماهير أهل العلم أنهما نفختان، وليس الحديث عن هذا الآن، الله -تبارك وتعالى- هنا يقول: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} هذه النفخة هي نفخة البعث بالاتفاق، ينفخ في هذا القرن نفخة فيقومون من قبورهم، يأتون أفواجاً، يأتون جماعات، هذه الجماعات كما قال الله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [سورة الإسراء:٧١]، والمقصود بإمامهم كما يقوله بعض السلف: يعني بنبيهم، وبعضهم يقول: بكتابهم، فكل ذلك يقال له: إمام، فتأتي كل أمة مع نبيها كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي وليس معه أحد))[٣]، فيأتون أفواجاً، لا يأتي الناس دفعة واحدة، وإنما هؤلاء مع نبيهم، وهؤلاء مع نبيهم، جماعات، يأتون إلى أرض المحشر، هؤلاء الذين تفرقوا في أرجاء المعمورة، قبورهم فيها مبثوثة، يقومون وتبعثر هذه القبور ثم يأتون، كل أمة مع نبيها.

{وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً} أي: **طرقاً ومسالك لنزول الملائكة**.

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير قال به بعض السلف، {أَبْوَاباً} يعني: **طرقاً ومسالك**، وبعض أهل العلم يقول: هي على هيئة الأبواب، هكذا تتراءى للناظرين، ولكن ذلك من أثر التغير الهائل الذي يحصل بهذا الكون، كما ذكر الله -عز وجل- في المواضع الأخرى، يعني صار فيها فروج على هيئة الأبواب، كما قال الله -عز وجل-: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا} [سورة الفرقان:٢٥]، هذا في يوم القيامة، قال: {فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [سورة الرحمن:٣٧]، وقال: {وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [سورة الحاقة:١٦]، وقال: {إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ} [سورة الإنفطار:١]، و{وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ} [سورة المرسلات:٩]، و{إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ} [سورة الإنشقاق:١]، فيحصل لها تصدع وتشقق، ولهذا قال: {وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا}، تتراءى للناظرين أنها أبواب، وهي في الحقيقة الشقوق والصدوع التي حصلت بسبب أهوال ذلك اليوم وما

---

٢ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...} الآيات، برقم (٣٣٩٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٣٧٣).

٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٢٢٠).

يحصل فيه من التغير في العالم العلوي والعالم السفلي، ويدل على أن ذلك المراد به التشقق والتصدع ما ذكر بعده، قال: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}.

{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً} كقوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [سورة النمل:٨٨] وكقوله: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [سورة القارعة:٥].

وقال هاهنا: {فَكَانَتْ سَرَاباً} أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، بعد هذا تَذهب بالكلية فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً} [سورة طه:١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف:٤٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}، سيرت الجبال وذلك في يوم القيامة، وذكر هنا تفسيره من قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، وهذا أيضاً يوم القيامة، كل هذا يحصل يوم القيامة، وليس كما يقوله بعض من يتكلم في التفسير العلمي، يقول: إن هذا يدل على أن الأرض تدور، فهذه الجبال تحسبها ساكنة لا تتحرك والواقع أنها تمر مر السحاب، تتحرك، هذا كله ذكره الله -عز وجل- في سياق القيامة، {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، يعني: أن الله يسيرها، فذلك معنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}، ولم يقل أحد من المفسرين قط بأن هذا في الدنيا، أبداً، وكل قول يعود على أقوال السلف بالإبطال فهو أولى بالبطلان، لا يمكن أن تتفق الأمة عبر هذه القرون بما فيها من الصحابة أعلم الناس بالقرآن، لا يمكن أن يتفقوا على معنى غير صحيح، أن يفهموا الآية فهماً خاطئاً، ثم يأتي في هذا العصر -لاسيما من غير المتخصصين في التفسير والعلوم الشرعية- ثم يقول: هؤلاء جميعاً أخطئوا والمعنى كذا وكذا، هذا لا يمكن.

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} يعني: صارت كَلَا شيء، هكذا بعض أهل العلم يقول، باعتبار أن السراب ليس بشيء، فهذه الجبال تزول وتتفتت، وتكون كالهباء، قالوا: أراد بقوله: {فَكَانَتْ سَرَابًا} أي: لا شيء؛ لأن السراب ليس بشيء.

وبعضهم يقول كابن جرير: صارت هباءً منبثاً لعين الناظر كالسراب، يعني هو يراها مثل السراب، كما قال الله -عز وجل-، يعني أولائك فسروه بالمقتضى، قالوا: مقتضى ذلك -يعني كونها سراباً- أنها لا شيء، قالوا: المقصود لا شيء، صارت لا شيء، ولا يلزم من ذلك أنه يرى سراباً، الآخرون كابن جرير قالوا: لا، هي صارت لا شيء، فصار يهيأ للناظر إليها أنها سراب، والله -تبارك وتعالى- ذكر للجبال أحوالاً في القرآن فمن ذلك الاندكاك، كما قال الله -عز وجل-: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} [سورة الحاقة:١٤]، هذه مرحلة، الدك لهذه الصخور والجبال التي هي في غاية الصلابة، وحالة ثانية أنها تكون كالعهن، كالصوف المنفوش، بعدما تدك، {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [سورة القارعة:٥]، وحالة ثالثة أنها تصير كالهباء، الهباء الذي يتطاير {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} [سورة الواقعة:٥-٦]، الهباء هو هذا الذي نشاهده حينما تكون أشعة الشمس تدخل إلى الحجرة ثم بعد ذلك نرى أشياء تتطاير دقيقة في غاية الدقة تتطاير في الهواء كالغبار، لا يمكن أن تقبض باليد، فهذه ليست بشيء، فتكون الجبال كالهباء، فتنسف

هذه الجبال وتحملها الرياح، {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، فتزول ثم بعد ذلك تصير سراباً كلا شيء، إما أن الناظر إليها يتراءى إليه أنها سراب، أو أن المقصود أنها تذهب بالكلية كالسراب الذي هو في حقيقته لا شيء، تكون سراباً، تكون أثراً بعد عين، فهذه أحوال هذه الجبال كما قص الله -تبارك وتعالى- في كتابه.

وقوله تعالى: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً} أي: مُرصَدة مُعَدّة، {لِلطَّاغِينَ} وهم: المَرَدة العصاة المخالفون للرسل، {مَآباً} أي: مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً.

{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً} قال: أي مرصدة معدة، {جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً} -أعاذنا الله وإياكم منها-، المرصاد هو المكان الذي يرصد فيه الشيء، يعني المرصاد مكان يرصد فيه العدو، يرصد فيه الصيد مثلاً، يرصد فيه الشيء، يعني المراصد مثلاً التي تكون مثلاً للنجوم، والأفلاك، فكل ما يرصد فيه الشيء يقال له: مرصاد، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً}، بعضهم يقول: يرصدون به، أي مُعد لهم، أي أن خزنة النار يرصدون الكفار فيها، يرصدون هؤلاء الكفار، كما يقوله المبرِّد وغيره.

وبعضهم يقول: {كَانَتْ مِرْصَاداً} يعني: مكاناً لحبسهم، كما يقوله مقاتل، وبعضهم يقول: طريقاً وممراً، يعني: النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن الجسر يضرب على متن جهنم، فيمر الناس فيه أرسالاً، فيتفاوت سيرهم، وعليه كلاليب تخطف الناس، فبعض السلف يقول: {كَانَتْ مِرْصَاداً} ممراً تتخطف هؤلاء الكافرين، فيتهاوون بها، فهي في طريقهم، ممراً لهم، {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا} [سورة مريم:٧١]، وهؤلاء خزنة النار يترقبون هؤلاء الكفار.

وبعضهم يقول: هذا باعتبار أو بمعنى أن النار نفسها تتطلع إليهم وترصد لهم، تنتظر من يأتي وتقول: هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ كما يتطلع الرصد والراصد لمن يمر به.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: معنى {مِرْصَاداً} أي: ذات ارتقاب، ترقب من يجتازها وترصدهم.

الحاصل من هذا كله أن هذه الأقوال متقاربة، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً}، هي معدة لهم، وهي مخلوقة موجودة، وقد رآها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ورأى بعض من يعذبون بها، رأى عمرو بن لحي الخزاعي الذي غير دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وأول من سيب السائبة، رآه يعذب يجر قصبه في النار، يجر أمعاءه، ورأى فيها المرأة التي حبست الهرة.

وهذه النار هي معدَّة لهؤلاء، الآن موجودة، وتنتظر هؤلاء الكافرين، وقد رصدت وتهيأت لهم، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً}، وهي لهم بالرصد حيث يمر الناس عليها، وعليها كلاليب، على الصراط كلاليب، فيتهاوى بها من كتب الله -عز وجل- له دخولها، وكذلك أيضاً هؤلاء الخزنة -خزنة النار- هم يترقبون ويرصدون من يساق إلى النار، ومن هو بداخلها، كل هذا متقارب، فجهنم مرصاد لهؤلاء الكافرين، {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [سورة آل عمران:١٣١]، ومعنى {أُعِدَّتْ} الإعداد يدل على تهيئة الشيء بعناية، تقول: أعددت لك كذا، أعددت لك متكأً، أعددت لك طعاماً، أعددت لك مجلساً، أعددت لك مقالة، يعني بعناية، فالنار أعدت لهم بعناية وهُيئت، جاهزة، {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [سورة الفرقان:١٢-١٣] يقولون: وا ثبوراه، وا ثبوراه، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ

مَآباً}، للطاغين الذين جاوزوا الحد، كفروا بالله -عز وجل-، كذبوا رسله، حاربوا أولياءه، كل ما جاوز الحد فهو موصوف بالطغيان، {لِلطَّاغِينَ مَآباً}، والمآب هو المرجع، يعني أنها مرجعهم ومصيرهم، لكنها مسألة وقت، مع أنهم في هذه الحياة الدنيا وإن ظن الظان أنهم منعمون يتمتعون إلا أن لهم حظاً من هذا العذاب، وهو يمزق نفوسهم، يعيشون في بؤس، إذا كان الواحد من أهل الإيمان إذا غفل عن ذكر الله بعض الغفلة يجد أثر ذلك في نفسه، فكيف بالذين لا يعرفون الله أصلاً، ولا يذكرونه، ولا يعبدونه، ولا يصلون، ولا يتطهرون؟ هؤلاء لا شك أنهم في عذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة، هذا بالإضافة إلى أنهم يعذبون بأموالهم وأولادهم، وبهذا النعيم الذي يتقلبون فيه، وبقدر ما يكون لهم من النعيم يكون لهم من العذاب، كما هو مشاهد، انظر إلى أتعس أهل الأرض هم أكثر أهل الأرض رفاهية، أكثر حالات الانتحار في أكثر البلاد رفاهية.

كفى بك داءً أنْ ترى الموتَ شافياً *** وحسبُ المنايا أنْ يكنّ أمانيا

فهؤلاء بلغ بهم الشقاء مبلغه حتى ضاقت بهم نفوسهم، وضاقت بهم الأرض بما رحبت، فلم يجدوا ملاذاً إلا الموت، فهم في شقاء في الدنيا، وعذاب في البرزخ، وهم في عذاب أيضاً في الآخرة. {لِلطَّاغِينَ مَآباً}.

وقوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} **أي: ماكثين فيها أحقابا، وهي جمع "حُقب"، وهو: المدة من الزمان.**

الحُقُب: **المدة من الزمان**، وردت عن بعض السلف أقاويل في تحديد الحقب، واختلفت أقوالهم في ذلك وتباينت تبايناً كثيراً، ولا حاجة للاشتغال بها، ولكن إذا جاء ذلك في شيء من كتب التفسير وقرأته فيه فيمكن أن يقال: إن ذلك محمول على الأحقاب غير المتناهية، بصرف النظر عن تحديد الحقب، فهي أحقاب غير متناهية، أو أنها أحقاب في نوع من العذاب الذي هو الحميم والغساق، يبقون فيها أحقاباً، ولهم جزاء آخر غير هذا، {وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [سورة ص:٥٨]، وليس معنى ذلك أن للنار مدة ثم تفنى بعدها، فإن الذي عليه أهل السنة أن النار لا تفنى.

.....*** كذلك جنة المأوى وما فيها من الولدانِ

حور لا تفنى، والنار لا تفنى، الجنة لا تفنى، بل هي باقية أبداً، وقول من قال: إن ذلك له انقضاء قول غير صحيح، وخلاف الأدلة التي نصت على الخلود، وأما التعليق في آية هود في قوله -تبارك وتعالى-: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} [سورة هود:١٠٧]، فالمقصود بذلك التعليق على المشيئة: أن ذلك من قبيل التحقيق لا التعليق، كقوله تعالى: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} [سورة الفتح:٢٧]، وهم داخلوه قطعاً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال في ما يقال من السلام على أهل المقابر: ((وإنا -إن شاء الله- بكم لاحقون))[٤]، وهو يعلم أنه لاحق بهم قطعاً، {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [سورة الزمر:٣٠]، فالتعليق بالمشيئة على نوعين:

الأول: ما كان من قبيل التحقيق.

والثاني: ما كان من قبيل التعليق على المشيئة، يعني إنْ حصل ذلك، فكل شيء بمشيئته -سبحانه وتعالى-.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، برقم (٢٤٩).

وقال خالد بن مَعْدان: هذه الآية وقوله تعالى: {إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [سورة هود:١٠٧] في أهل التوحيد، رواهما ابن جرير.

وروى ابن جرير عن سالم: سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} قال: أما الأحقاب فليس لها عِدّة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحُقُبَ سبعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون.

وقال سعيد عن قتادة: قال الله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} وهو: ما لا انقطاع له، وكلما مضى حُقُب جاء حقب بعده، وذكر لنا أن الحُقُب ثمانون سنة.

وقال الربيع بن أنس: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله -عز وجل-، وذكر لنا أن الحُقُب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون. رواهما أيضاً ابن جرير.

الأحقاب: جمع حُقُب كما سمعتم، ولكن هذه الأقاويل هي متابينة، وبعضهم يقول: الحقب ثلاثون سنة، وقيل غير هذا، ولا حاجة إليه، ولكن يمكن أن يقال: إن هذه الأحقاب هي الدهور، يعني أنهم يمكثون في النار ما دامت هذه الأحقاب، -وهي لا تنقضي- يبقون فيها على مدى الدهور، لا يخرجون منها، وبعضهم يقول: إن الأحقاب المذكورة هي مدة وقت شرب الحميم والغساق المذكور هنا، **{لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا}**، فإذا انقضت كان لهم نوع آخر من العذاب، هذا ذكره ابن جرير احتمالاً، ذكره احتمالاً، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}** [سورة ص:٥٥-٥٨]، وبعضهم يقول: هذه محمولة على -يعني أن الأحقاب مدد معينة- عصاة الموحدين، والواقع أن السياق في الكفار، وليس في هؤلاء، ولا حاجة لهذا التقييد، والحسن البصري يقول: والله ما هي إلا أنه إذا مضى حُقُب دخل آخر، ثم آخر، ثم كذلك إلى الأبد، إذاً **{لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}** يعني: دهوراً لا تنقضي.

النظر الصحيح، والتفكير المثمر، والتدبر النافع في مثل هذه المقامات أن يعتبر الإنسان بذلك فيعمل، وأن يلتفت إلى الحياة الدنيا بهذا الاعتبار فتتضاءل في عينه، مهما طال البقاء فيها، مهما عُمّر، يعني إذا كان الإنسان سيعيش ستين أو سبعين أو ثمانين أو تسعين أو مائة سنة، لا تساوي هذه شيئاً أمام المليارات، وأمام شيء بلا انقضاء، إذاً هذه اللذات التي في لحظات، ثم تتصرم، ويقسم المجرمون يوم القيامة أنهم ما لبثوا شيئاً يذكر، **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}** [سورة الروم:٥٥]، فإذا كان الأمر كذلك، المسألة مسألة ساعة، فإذاً هذه الحياة الدنيا هي لا تستحق أن يتهافت الناس عليها، وأن يشتغلوا بها، لا تستحق هذا الانكباب، وإنما ينبغي أن تكون زاداً يتزود به إلى الآخرة، يشغل الإنسان هذه الأوقات وهذه الأنفاس في مرضاة الله -عز وجل-، والتقرب إليه وطاعته، هذا هو النظر الصحيح، تمضي الأوقات بسرعة لا نشعر بها، فلذلك ينبغي أن تستغل الأعمار فيما ينفع، فيما يرفع، ولا يشتغل الإنسان بلذة عابرة، تذهب وتزول وتضمحل، وتتلاشى، الآخرة تحتاج إلى عمل، **{لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}**، بلا انقضاء، فهذا كما يقول ابن حزم

الأندلسي: لو أن العاقل خير بين أمرين:

الأول: له طريق واسع فيه من الثمار والأزهار.. طريق واسع يفضي إلى مكان ضيق.

والثاني: طريق ضيق يفضي إلى بحبوحة من العيش وسعة، يقول: العاقل يؤثر الطريق الضيق، ((حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات))[٥]، الطريق ضيق في هذه الدنيا، يحبس نفسه عما حرم الله -عز وجل- حتى يصل إلى بحبوحة، وسعادة، وراحة.

والحافظ ابن حجر -رحمه الله- ذكر أشياء من هذا القبيل في الفتح، نقل بعضها عن ابن الجوزي، وذكر عن غيره أشياء تُصور حقيقة ما نحن فيه في هذا المعبر وهذا الممر، مما ذكره ذكر أمثالاً لحال الناس في هذه الحياة الدنيا، من ذلك أن هؤلاء الناس كقوم ركبوا في سفينة، فأرفأتهم هذه السفينة إلى جزيرة في البحر، فلما أرادوا النزول قال لهم قائد السفينة: ليقضِ كل امرئ حاجته ثم يرجع -الغرض من النزول هو قضاء الحاجة-، فنزلوا، فكانت الجزيرة غنّاء، كثيرة الأزهار والثمار والأشجار والمياه، فمنهم من نسي الغرض الذي نزل من أجله أصلاً، فصار يسبح في الأنهار، ويقطف من الأزهار والثمار، والقسم الثاني اشتغل بشيء من جمع الأزهار والثمار، لكنه أدرك السفينة حينما نادى المنادي بالرحيل، وقسم بادر قضى حاجته ثم رجع، فالذين بادروا حصّلوا أرفع الأماكن وأوسع الأماكن، والذين أبطئوا بعض الشيء حصلوا أماكن دونها وأضيق، ورحلت هذه السفينة، وذبل ما بأيديهم من الأزهار والثمار وضَيَّق عليهم ثم ألقوه ولم ينتفعوا به، وأما أولائك الذين نسوا ما جاءوا من أجله فكانت الجزيرة مليئة بالسباع والهوام وما إلى ذلك، فما أمسوا حتى هلكوا، هذا حال الناس، أقسام الناس، أصناف الناس في هذه الحياة الدنيا.

وذكر مثلاً آخر أيضاً يقول: هذا مثل إنسان يطارده تنين، أو يطارده سبع، فتعلق بغصن شجرة، فبينما هو كذلك نظر تحته وإذا حفرة، هذه الحفرة فيها تنين قد فغر فاه، وإذا بهذا الغصن في أصله فأران أسود وأبيض يقرضانه بلا توقف، يعني سينكسر هذا الغصن الذي تعلق فيه، وسيسقط في هذه الحفرة، وإذا بجواره خلية فيها عسل، فذاقه فأعجبه، فصار يلعق من هذا العسل، ونسي الحفرة والتنين، ونسي الفأرين، فالذي يطارده هو الموت، والذي تحته هو القبر، والغصن هو العمر، والفأر الأسود والأبيض الليل والنهار يقرضان العمر، سينكسر يوماً ما، والخلية هذه هي الدنيا ولذات الدنيا، جعل يلعق وهو ناسٍ، ناسٍ حتى ينكسر به ويلاقي مصيره.

فهذا هو التفكير الصحيح، هناك تفكير سلبي أن الإنسان يلح على ذهنه ليدرك أموراً لا يطيقها العقل، أحقاباً مدة طويلة جداً، فيضغط على الذهن ثم بعد ذلك يجد أنه قد وصل إلى حال لا يستطيع أن يعقلها، يقف الذهن عاجزاً دون تصورها، فيصيبه بسبب ذلك انزعاج، وقلق وضيق، لمّا ضاق عَطَنُه بذلك، إنسان لا يستطيع أن يتصور هذا، وأن هذا يحصل، والسبب هو التفكير السلبي، كل الأشياء هذه فيها تفكير إيجابي وسلبي، نحن لما ندعو الناس إلى شيء نافع من الناس من يأخذ، وعندما نذكر عبادة السلف مثلاً بعض الناس يقول: إذا كان كذلك -بهذه المثابة- أين نحن؟! إذاً ما في فائدة للعمل.

---

٥ - رواه مسلم، في أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٢).

وعندما نذكر نصوص الرجاء يتشبث بها بعض الناس يقول: إذاً الله غفور رحيم، نعمل ما نشاء، وتُذكر نصوص الخوف فيقول: إذاً ما في فائدة، يحصل عنده إحباط ويأس، هذا كله تفكير سلبي، ولذلك الإنسان يخاف أحياناً، تتكلم عن الرياء، حُب الظهور والمحمدة وما إلى ذلك، بعض الناس يفكر تفكيراً سلبياً بهذه القضية، فيقول: إذا كان الأمر كذلك إذاً لماذا ندعو؟ ولماذا نعلم؟ ولماذا نعمل؟ نترك كل شيء ولا نقع في هذه المخاطر، هذا غلط، فوجهوا أفكاركم إلى التفكير الصحيح، التفكير هذا إذا وجه لشيء ينفع أثمر، وإذا وجه إلى شيء يضر حصل بسبب ذلك أمور سلبية.

وقوله تعالى: {لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً} أي: لا يجدون في جَهنَّم برداً لقلوبهم، ولا شرابا طيبا يتغذون به. ولهذا قال تعالى: {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}.

{لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً}، البرد يعني ما يبرد الأجسام، هذا هو المتبادر، والشراب شيء يبرد بواطنهم، الإنسان إذا صار في حال من العطش والشدة والحر الشديد يريد شيئاً يبرد داخله وهو الشراب، ويريد شيئاً يبرد ظاهره، فهم لا يجدون هذا، ولا يجدون هذا، هذا هو المشهور، مع أن طائفة من السلف كمجاهد، والسدي، وأبي عبيدة، والفضل بن خالد، وأبي معاذ النحوي قالوا: البرد: هو النوم، {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا} أي: نوماً، لكن هذا خلاف المتبادر الظاهر، فإن النوم وإن كان معنى صحيحاً من جهة اللغة إلا أنه قليل في الاستعمال، والقرآن يُحمل على المعنى المتبادر الظاهر، ولا يحمل على معنى مغمور إلا لدليل يجب الرجوع أو الوقوف عنده، فكون النوم يقال له: برد هذا صحيح، والإنسان إذا أصابه العطش في رمضان أو الجوع أو نحو ذلك احتر باطنه، فيلجأ إلى النوم، فإذا نام هدأت حرارة الباطن، وسكن عطشه، وارتاح بهذا الاعتبار، {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا}، لكن الراجح الذي عليه الجمهور أن المقصود: لا يذوقون برداً أي ما يبرد ظواهر الأجسام، ولا شراباً يبرد بواطنها، {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، فهذا الاستثناء بهذا الاعتبار إذا قلنا: إنه يرجع إلى البرد والشراب يكون استثناءً منقطعاً؛ لأنه ليس من مطلوبهم، فإن الحميم {يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} [سورة الحج:١٩-٢١] يعني: يضربون بمقامع: حديدة في رأسها شيء يضرب بها الواحد منهم، وكلما أرادوا الخروج أو فارت النار بهم وارتفعت بهم ضربوا بهذه المقامع، {كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا} [سورة الحج:٢٢]، فهذا حال هؤلاء في النار، {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا}، أجسامهم يصب عليها الحميم، وكذلك في داخل الأجواف، {يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}، فيحصل الانصهار للظاهر والباطن، تذوب، {إِلا حَمِيماً} أي الذي انتهى حره، فهو في غاية الحرارة -نسأل الله العافية-، إذا كان البخار يقشر الوجه ويزيل جلدته، فكيف إذا صب على الإنسان -نسأل الله العافية- الحميم، والغساق؟، قال: {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، هنا يقول: **قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم، ومن الشراب الغساق، وكذا قال الربيع بن أنس، فأما الحميم فهو الحار الذي انتهى حره وحُمُوّه، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه**، فابن كثير جمع المعنيين اللذين ذكرهما السلف، وهذه عادة ابن كثير في هذا الكتاب

وهي من مزايا هذا الكتاب.

بعضهم يقول: الغساق هو النتن الذي يخرج من أهل النار من الصديد ونحو ذلك، يعني ما يسيل منهم، {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، وبعضهم يقول: هذا الذي يخرج من أهل النار ويسيل منهم نتن، وبعضهم يقول: هو الذي اشتد برده، فالعذاب في النار على نوعين: الحميم والحرارة -الإحراق-، والثاني: الزمهرير، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير))[٦]، فهم يعذبون بالبرد الشديد، وبالحر الشديد، {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، فابن كثير -رحمه الله- هنا جمع بين هذين المعنيين {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، وابن جرير يقول: إن الغساق أصله الشيء السائل الذي يسيل، هو الشيء الذي يسيل، {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، هذا الذي يسيل منهم، يسيل من حروقهم، وأجسامهم، وجروحهم، وعيونهم، وآنافهم وما إلى ذلك من الصديد المنتن، يخرج من فروجهم، ومسام الجسد، وما إلى ذلك، وهو في منتهى البرودة، {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، فهذا يعني البارد الذي قد اشتدت برودته، هذا هو المعنى، والله تعالى أعلم.

وهنا لما ذكر الله -تبارك وتعالى- أنهم {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا}، قد يتوهم أنهم لا يذوقون فيها شيئا، فبيّن أنهم يذوقون، قال: {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، يعني: هم لا يبقون هكذا يعذبون ولا يطعمون شيئاً، وإنما يسقون الحميم، ويأكلون الزقوم، ويشربون الغسلين، ويشربون الغساق، {وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ} [سورة الحاقة:٣٦]، الغسلين البارد الذي اشتدت برودته، والطعام يقال لكل ما يُطعَم مما يشرب أو يؤكل، ويدل على ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي} [سورة البقرة:٢٤٩]، قال: {وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ}، مع أنه مشروب، فالمشروب يقال له: مطعوم، تقول: فلان لم يطعم، يعني: ما أكل ولا شرب.

ولهذا قال تعالى: {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق، وكذا قال الربيع بن أنس، فأما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره وحُمُوّه، والغَسَّاق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه، أجارنا الله من ذلك بمنه وكرمه.

قوله: {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، غسقُ الليل يعني برودة الليل، فالغساق هو البارد، {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، غَسَقَ الجرح يعني سال منه الصديد، والقيح، وما إلى ذلك، {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاء وِفَاقًا} قال: أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة، يعني: الجزاء من جنس العمل، جزاءً موافقاً لحالهم وأعمالهم وما كانوا عليه.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٦٠)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة، وينالله الحر في طريقه، برقم (٦١٧).

{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا}: لم يكونوا يعتقدون أن ثَمّ داراً يجازون فيها ويحاسبون، {لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} بعضهم يقول: {لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} لا يرجون ثواباً في الآخرة، ثواب الحساب، هنا: أنه ليست هناك دار يجازون فيها ويحاسبون فيرجون الحساب، كما يقوله الزجَّاج.

وبعضهم فسره بالخوف، ومعروف أن الرجاء في أصله هو توقع المحبوب، فكيف صار هنا بمعنى الخوف؟، بعضهم يقول: إذا جاء الرجاء منفياً فهو بمعنى الخوف، {لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} يعني: لا يخافون حساباً، وبهذا فسره مجاهد وقتادة، وبعضهم يوجه ذلك بأن الرجاء أمل قد يُخاف أن لا يتم، كما ذكر هذا الفراء والزجَّاج.

وقوله تعالى: {جَزَاءً وِفَاقًا} أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا، قاله مجاهد، وقتادة، وغير واحد.

ثم قال: {إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً} أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون، {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً} أي: وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله -عليهم الصلاة والسلام-، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة.

وقوله: {كِذَّاباً} أي: تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل.

يعني: كذبوا تكذيباً، هذا مصدر، كذبوا تكذيباً، وكذبوا كذاباً يعني: تكذيباً، كما يقوله أيضاً ابن جرير -رحمه الله.

وقوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً} أي: وقد عَلِمنا أعمالَ العباد كلهم، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً}، بعضهم يقول: هذا منصوب على المصدرية، كل شيء أحصيناه كتاباً، ويكون بهذا الاعتبار منصوباً على المصدرية لأحصيناه، يعني: أحصيناه إحصاءً، أحصيناه كتاباً، من الفعل "أحصى"؛ لأن الإحصاء هنا بمعنى الكتابة، {أَحْصَيْنَاهُ} كل ذلك قد كتب، فقال: {كِتَاباً}، فيكون المصدر من معنى الفعل لا من لفظه، وبعضهم يقول: منصوب على الحال، {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ} الحال: أن الله كتبه، كتب ذلك فهو مكتوب، يعني: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً} أي: مكتوباً، بعضهم يقول: {كُلَّ شَيْءٍ} هنا العموم يدل على أن المقصود ما كتب في اللوح المحفوظ، الله كتب فيه كل شيء، ومن ذلك عذاب أهل النار، ومن ذلك الأعمال التي عملوها، {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً}، أي ما كتبه في اللوح المحفوظ.

وابن جرير -رحمه الله- كأن هذا هو ظاهر كلامه؛ لأن عبارته: أحصيناه فكتبناه كتاباً، كتبنا عدده ومبلغه وقدره، فظاهر هذا أن المقصود بكلامه ما في اللوح المحفوظ.

وبعضهم يقول: {أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً} يعني: ما كتبه الملائكة من أعمال هؤلاء، كل هذا محصى عليهم بالكتابة، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق:١٨]، {بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [سورة الزخرف:٨٠]، {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية:٢٩]، فكل هذه الأشياء مكتوبة، أحصاها الله -تبارك وتعالى- وجعل هؤلاء الحفظة الكاتبين.

الذين قالوا: المقصود ما يكتب من أعمالهم، قالوا: لأن المقام مقام حساب، فهو يجازيهم ويتوعدهم، ويقول: كل ذلك مرصود، {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً}، كل هذه الأعمال -الدقيق والجليل- مسطورة ومكتوبة على هؤلاء.

ولا شك أن الله -عز وجل- كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء، ومن ذلك أعمال العباد، وما لهم من الجزاء، وكذلك الملائكة يكتبون، فالله أحصى كل ذلك كتاباً في اللوح المحفوظ، وأحصاه كتاباً أيضاً مما يتصل بأعمالهم حيث الملائكة تكتب، كل ذلك يُكتب، هذا يدعو الإنسان إلى محاسبة النفس، وأنه حينما يتلفظ ويتكلم وما إلى ذلك هو يملي على الملَك، كل هذه الأشياء تكتب، وهذه الغيبة، وهذا الكلام، والملك يكتب، هو لا يكتبها لك، وإنما يكتبها عليك، وستعطى هذا الكتاب، وسيوضع هذا الكتاب في الميزان، بدلاً من أن يتكلم الإنسان ويخوض أو يشتغل بما لا ينفعه، يجعل مكان ذلك تسبيحاً، فيذكر الله -عز وجل- ويشتغل بما يعود عليه بالنفع، وإذا أراد أن ينظر إلى الحرام أو يشتغل بالحرام، أو يفعل الحرام، أو يخطو إلى الحرام فيتذكر أن الله -عز وجل- يحصي عليه ذلك جميعاً، وأن الملك يكتب هذه الأعمال، فهي أرصدة يتحملها الإنسان، ويحملها على ظهره يوم القيامة، ثم يجازيه الله -عز وجل- عليها، المؤمن الذي يؤمن بهذه الأشياء كل ذلك يحمله على التقوى والمراقبة والمحاسبة، فيتخفف من السيئات، ويكثر من الحسنات، {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [سورة يونس:٦١]، كل هذا الله شاهد وشهيد، والملك يكتب، فأين يذهب الإنسان إذا أراد أن يعصي الله -عز وجل-؟، وأين يذهب بقلبه ويتوجه بنظره وفكره إذا أراد أن يرائي الناس؟ والشيطان ما يترك أحداً، يتأمل الإنسان في أحوالنا وأحوال الخلق، ما يترك أحداً، إن كان من أهل العبث والمجون واللهو أغرقه بذلك، وإذا كان فيه ميل للصلاح أشغله بالباب الذي يميل إليه، إن كان أُعطي صوتاً حسناً لربما يتحول إلى قارئ يجعل القرآن سبيلاً إلى التكسب أو سبيلاً للرياء والسمعة وطلب المنزلة في قلوب الناس، فيتحول إلى متاجر بالقرآن، يطلب به الأموال، أو يطلب أشياء من الثناء والمدح والشهرة، الأصوات الجميلة فتنة، الشيطان ما يترك أحداً، فتجد هذا الإنسان يتغنى ويصدح في هذه المحاريب، وقد يكون لا خلاق له عند الله، ولا تزيده صلاته وقراءته من الله إلا بُعداً، -نسأل الله العافية-، يذهب ويجيء، وإذا كان عنده فضل علم أو نحو ذلك يأتيه الشيطان من هذا الباب، فيتولد عنده من الأوصاف من الكبر ورؤية النفس والعجب واحتقار الخلق، وحب الثناء والإطراء والمحمدة والأضواء ما يجعله مفتوناً -نسأل الله العافية-، فيكون العلم هذا وبالاً عليه، وهكذا إذا كان فيه ميل إلى الكرم أو البذل أو الإنفاق، أو الشجاعة والجهاد في سبيل الله -عز وجل- قد يُبطل عليه أعماله كلها، نسأل الله العافية.

{فَذُوقُوا فَلَنْ نزيدَكُمْ إِلا عَذَاباً} أي يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [سورة ص:٥٨].

قال قتادة عن أبي أيوب الأزدي عن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: {فَذُوقُوا فَلَنْ نزيدَكُمْ إِلا عَذَاباً} قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً.

الذوق يقال لما يجده الإنسان من مطعوم ومشروب، وهذا هو الأصل، ولكن لما كان ذلك يدرك بالحاسة قيل لكل ما يدرك بالحواس، فيقال: الإنسان ذاق الحر، ذاق البرد، ذاق الحلوة والمرة، ذاق الألم، ذاق المرض، كل ذلك يقال له: ذوق، فهذا الإنسان الذي قد يعذب أو يضرب، ويقال له: ذق، مع أنه لم يذق بلسانه، فكل ما يتناهى ويشتد أثره فيدركه بحواسه يقال له: ذوق، وقد يتناهى الأمر النفسي من جهة الألم فيكون بمنزلة الذي يحس فيقال: ذاق من التعب، ذاق من المعاناة، ذاق من الحزن، وما إلى ذلك، والله أعلم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النبأ من الآية (٣١) إلى الآية (٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} [النبأ: ١٧]، إن يوم القيامة الذي يفصل الله -عز وجل- فيه بين الخلق، يفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ويفصل بين الظالم والمظلوم، ويجازي كل واحد على عمله.

{كَانَ مِيقَاتًا} مؤقتاً بوقت حدده الله -عز وجل- لا يتقدم ولا يتأخر، ذلك الوقت هو نهاية الدنيا، وابتداء الآخرة، يبتدئ ذلك بالنفخ في الصور حيث يموت من على الأرض من الأحياء إلا من شاء الله -تبارك وتعالى-، ثم بعد ذلك ينفخ النفخة الثانية فيقومون أحياء، وذلك قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} [النبأ: ١٨]، يُنفخ في القرن، ينفخ فيه الملك فيقومون من قبورهم، ويأتون جماعات تلو جماعات، كل جماعة يتقدمهم نبيهم.

{وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا} [النبأ: ١٩] تتغير أحوال هذا العالم العلوي والسفلي، فتتشقق السماء وتتصدع وتنفطر فتبدو للناظر تلك الصدوع والشقوق على أنها أبواب.

{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} [النبأ: ٢٠] تدك الجبال حتى تصير كالعهن المنفوش، ثم بعد ذلك ينسفها الله -تبارك وتعالى- فتصير هباءً، فتكون خبراً بعد عين، لا أثر لها، وإنما تصير كالسراب الذي لا حقيقة له.

{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا} [النبأ: ٢١]، جهنم: اسم من أسماء النار، إما لسوادها وظلمتها، أو لغير ذلك، {كَانَتْ مِرْصَادًا} تترقب من يلقى فيها، قد هُيئت وأعدت للكافرين، فهي موجودة، خلقها الله -تبارك وتعالى- تنتظر هؤلاء الكفار وتترقب مجيئهم، كما أن الله -تبارك وتعالى- جعل طريق الناس عليها في الجسر الذي يضرب على النار، فتترقب هؤلاء الذين يمرون، فمِن ناجٍ ومِن هاوٍ ومُكَرْدَس، كما أن هؤلاء الملائكة الغلاظ الشداد الذين جعلهم الله -عز وجل- خزنة للنار يرصدونها، ويرصدون من فيها من هؤلاء الكافرين.

{لِلطَّاغِينَ مَآبًا} [النبأ: ٢٢]، هي مرجع ومصير لهؤلاء الذين جاوزوا الحد، وتعدوا على حقوق الله -عز وجل- وطاعته، وصاروا محادين له.

{لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ: ٢٣] يبقون فيها الدهور الطويلة المتتابعة التي لا انقضاء لها.

{لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا} [النبأ: ٢٤] لا يجدون ما يخفف عنهم حرها مما يبرد الأجسام في ظاهرها من الهواء ونحوه، ولا يجدون أيضاً شراباً يبرد بواطنهم، إنما يجدون الحميم والغساق، فالحميم {يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ} [الحج: ٢٠] يصب على ظواهرهم، ويشربونه ويتجرعونه فيصهر أجوافهم، كما

يعذبون بالنوع الآخر من العذاب المتناهي في برده، المتناهي في نتنه، مما لا تستسيغه النفوس بحال من الأحوال مما يسيل من عصارة أهل النار.

{جَزَاء وِفَاقًا} [النبأ: ٢٦] هذا كله ليس بظلم من الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء، إنما هو جزاء يوافق ما جنوا، وما قارفوا، وما كانوا عليه في دنياهم من العمل.

{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} [النبأ: ٢٧] كانوا لا يخافون الحساب، ولا يرتقبون الجزاء، ولا ينتظرون ثواب الله -تبارك وتعالى- لأهل طاعته، فهم على أسوأ الأحوال في أعمالهم وأحوالهم.

{وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا} [النبأ:٢٨]، كذبوا بآيات الله -تبارك وتعالى- المتلوة والمشاهدة، مما أظهره الله -عز وجل- على أيدي الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، الذين جاءوا لدعوتهم بالمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، فكذبوا بذلك جميعاً، وكذبوا بالقرآن، وبكتب الله -عز وجل-، كما كذبوا أيضاً بما ظهر على أيدي الرسل مصدقاً لهم ولدعواهم النبوة من البراهين الساطعة التي لا تدع في الحق لبساً.

{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} [النبأ: ٢٩]، كل شيء قد أثبته الله -عز وجل- وكتبه في اللوح المحفوظ، ويدخل في ذلك أعمال العباد، كما أن الله -عز وجل- جعل عليهم الحفظة الكاتبين، الذين يكتبون الدقيق والجليل، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨].

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا} [النبأ: ٣١- ٣٦].

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم فقال تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [النبأ: ٣١] قال ابن عباس والضحاك: متنزها، وقال مجاهد وقتادة: فازوا فنجوا من النار، والأظهر هاهنا قولُ ابن عباس؛ لأنه قال بعده: {حَدَائِقَ}، والحدائق البساتين من النخيل وغيرها.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [النبأ: ٣١] هذا على عادة القرآن في الجمع بين ما يوجب الخوف والرجاء، فإذا ذكر العذاب وحال أهل النار ذكر معه الجزاء لأهل الطاعة والإيمان، ذكر ما يرغب بطاعته، فيكون العبد في حال بين الخوف والرجاء، وهما كالجناحين للطائر، لا يطير إلا بهما، فقال هنا: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا}، قال ابن عباس والضحاك: متنزهاً، والمفاز ليس معناه في اللغة المتنزه، ولكن معناه الحقيقي أنه مصدر، فاز مفازاً وفوزاً بمعنى الفوز، مفازاً بمعنى الفوز، والفوز في حقيقته هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، تقول: فلان فاز، الفائز هو فلان، كالفلاح فإن الفلاح هو تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب، تقول: المفلحون، فلان مفلح، أفلح فلان، بمعنى حصّل مطلوبه، ونجا مما يخاف ويحاذر.

فالمفاز: هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، كما يقول أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، وهذا معناه في الأصل، ويمكن أن يكون كما يقول بعضهم: مكاناً للفوز، وهو الجنة التي ذكر الله -عز وجل- صفة بعض النعيم الذي يكون فيها، {حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا} [النبأ: ٣٢]، فالحدائق التي ذكرها الله -عز وجل- والأعناب تفسير لهذا المفاز، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- والضحاك: متنزهاً، وهذا تفسير بالمعنى، ولم يفسر على اللفظ، والتفسير يأتي على المعنى، ويأتي على اللفظ، ولا إشكال في هذا، وابن عباس -رضي الله

عنهما- والضحاك هم أهل لغة، ويفهمون معنى المفاز والفوز، ولكنه يطوي لك المعنى الظاهر ليوصلك إلى المعنى المراد مباشرة.

{حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا}، فالحدائق والأعناب هذا هو المتنزه، تكون بهجة للنفوس، تطرب لرؤيتها والنظر فيها، فتنفسح النفس، وينشرح الصدر، كما هو معلوم، فالناس إذا أرادوا الترويح فإنهم يذهبون للمتنزهات، الأماكن التي يكون فيها من الجمال والخضرة، والمياه السارحة وما إلى ذلك، فهذه أشياء تجلب النفوس كما هو معلوم، والناس إذا تسامعوا بها قصدوها من أقاصي الدنيا، مع أنها لا تساوي شيئاً بالنسبة لما أعد الله -عز وجل- لأهل النعيم، فقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب))[1]، وقال -صلى الله عليه وسلم -: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المُضمَّر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها))[2]، فالجنة شيء لا يُقادَر في عظمته وسعته وبهجته.

فقوله: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً}، الحدائق بدل من المفاز، أي بدل اشتمال باعتبار أن هذا المفاز مشتمل على أشياء منها الحدائق والأعناب، ويمكن أن يكون بدل كل من كل على سبيل المبالغة، وإلا فلا شك أن الجنة ليست فقط حدائق وأعناباً وإنما فيها أشياء أخرى من الأنهار والقصور والحور والولدان، وما لا يعلمه إلا الله -تبارك وتعالى-، فإذا قلنا: إن ذلك من قبيل بدل الكل من الكل فيكون ذلك على سبيل المبالغة، يعني بجعل نفس هذه الأشياء مفازاً.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: كأنه قيل: إن للمتقين ظفراً بما طلبوا من حدائق وأعناب، باعتبار أنه فسر المفاز بالظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

{حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً} يقول ابن كثير: البساتين من النخيل وغيرها، وليس كل بستان يقال له: حديقة، إنما البستان الذي عليه حائط يحدق به، لإحداق الحيطان بها يقال لها: حديقة، البستان لا يلزم أن يكون عليه حائط، والحديقة لابد من وجود ما يحيط بها، فلهذه الإحاطة سميت حديقة.

{حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا}، وذكر الأعناب وهي من جملة الحدائق؛ لأنها من أطيب الثمار والأشجار، وأنفعها وأحسنها، وإلا ففي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والله -عز وجل- يقول -كما مضى في سورة البقرة-: {كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} [البقرة: ٢٥]. على القولين: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} يشبه بعضه بعضاً، وبعضهم يقول: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} يشبه الثمر الذي في الدنيا من حيث الهيئة، لا الحجم ولا الطعم ولا الحقيقة، يعني: يعرف أن هذه رمانة، وأن هذا عنب، لكن لا تكون بحال من الأحوال بحجم التي في الدنيا، فالتي في الدنيا لا شيء.

والحدائق والأعناب تعتبر بعض نعيم أهل الجنة، ولهذا لا تجد في القرآن تكراراً، نعيم الجنة ذكره الله -عز وجل- في مواضع كثيرة من القرآن، ولكنه في كل موضع يذكر طرفاً منه مما يناسب المقام، فذكر الطلح

---

١ - أخرجه الترمذي، أبواب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة شجر الجنة (٦٧١/٤)، برقم: (٢٥٢٥)، وصححه الألباني.

٢ - أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (١١٤/٨)، رقم: (٦٥٥٢)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (٢١٧٦/٤)، رقم: (٢٨٢٨).

المنضود، والماء المسكوب، والفاكهة الكثيرة التي لا يحصل لها انقطاع، {لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٣]، فليس لها مواسم معينة فيقال: هذا بالصيف، وهذا بالشتاء، وهذا النوع انتهى، ولا يُمنع منهم شيء من هذا النعيم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الزخرف: ٧١]، كل ما تشتهيه النفوس، ولهم فيها أيضاً أكثر من هذا، كما في الآية الأخرى {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ} [يـــس: ٥٧]، كلما ادعى شيئاً فهو له، وبعضهم يقول: كل ما يطلبون يأتيهم.

{وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} [النبأ: ٣٣]، **أي: وحوراً كواعب، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: {وَكَوَاعِبَ} أي: نواهد، يعنون أن ثُدِيَّهن نواهد لم يتدلين؛ لأنهن أبكار عُرُب أتراب، أي: في سن واحد، كما تقدم بيانه في سورة الواقعة.**

{وَكَوَاعِبَ} نواهد، يعني أن ثُدِيَّهن نواهد لم يتدلين، هذا أيضاً الذي قاله ابن جرير، يقال امرأة كَعَاب يعني قد تَفلّك ثديها، وصار ذلك كالكعب في صدرها، والعرب تشبه ذلك كثيراً بالكعب، كما تشبهه أيضاً بأمور أخرى يذكرونها كثيراً في أشعارهم، وذلك من أبلغ الأوصاف في الجمال عند العرب والعجم، والضحاك فسر الكواعب بالعذارى، وليس ذلك من قبيل التفسير على اللفظ، والعذارى مظنة لذلك ففسره به، ولكن المعنى {وَكَوَاعِبَ} أي: قد تَفلّك ثديها، هذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

{أَتْرَابًا} يعني: في سن واحدة متقاربة، أو في سن واحدة من الشباب، ليست مترهلة كبيرة قد ذبلت، وترهلت، حتى صارت في هيئة وحال لا تنجذب إليها النفوس وهي في هذا السن، هن في هذا السن المتقارب وذلك أبلغ بالنعيم؛ لأن التفاوت في السن لا شك أنه يظهر شيئاً من النقص، فالتي أصغر تكون النفوس إليها أكثر جاذبية، وتلك التي هي أكبر لربما أيضاً تتأذى بذلك، ويكون نقيصة في حقها، المرأة في الدنيا تعد الأيام -وإن كانت غير متزوجة الناس يعدون لها الأيام- وتتمنى أن لا تتجاوز الثامنة والعشرين بحال من الأحوال على أقصى وأسوأ الاحتمالات، ولكن الشمس لا تتوقف، وانظر إلى أجمل نساء الدنيا قبل قرن من الزمان، إما أنها -وهو الغالب- تحت التراب، قد تفسخ عظامها من لحمها، وتلاشت واضمحلت، أو أنها في حال من الهرم والشيخوخة لا يمكن أن تُقبل عليها النفوس أو أن تنجذب إليها، هذه هي الحياة، ولهذا الله -تبارك وتعالى- ذكر القواعد من النساء، هؤلاء لم يكنّ كذلك في مقتبل العمر، وإنما صرن إليه، فهي قعدت عن النكاح وعن الولادة والحمل، فهي لا ترجو نكاحاً، ولا ينظر إليها أحد من هذه الجهة، فهذه رفع الله عنها الحرج أن تضع ثيابها غير متبرجة بزينة، يعني: تلبس ثياباً واسعة، ولا يلزم أن تلبس العباءة {أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ} [النور:٦٠]؛ لأن النفوس لا تلتفت ولا تتطلع إلى نكاحها.

قال ابن القيم –رحمه الله-: "قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً}، الكواعب: جمع كاعب وهي الناهد، قال قتادة ومجاهد والمفسرون: قال الكلبي: هن الفلكات اللواتي تكعب ثُدِيُّهن وتفلكْنَ، وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن ثُدِيَّهن نواهد كالرمان، ليست متدلية إلى أسفل ويسميْن نواهد وكواعب"[٣]

---

[٣] - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٢٢٨)

لا تحتاج عمليات تجميل، ولا شيء، دائماً في سن الشباب وفي سن النضارة، فهذا هو النعيم الذي ينبغي أن تسمو الهمم لطلبه، ويجدّ العاملون في تحصيله، لا متاع الحياة الدنيا وحطامها، ولو تأملت سعي الناس عامة الناس في هذه الدنيا من الدراسة من أولها إلى آخرها، والعمل، وسألتهم: لماذا تعملون؟ لا يذكرون سوى شيئين، الأول: أن يعيش ويأكل، الثاني: يتزوج. يعني: بين البطن والفرج، كل هذا الذي ترون من الأعمال والمصانع والورش والعمال والدارسة إلا من رحم الله -عز وجل-، وقليل ما هم، الحياة لم توجد من أجل هذا، وإنما {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، لا أن تتهافت النفوس ويكون الهدف والغاية هو تحصيل هذين الأمرين الفانيين المتكدرين المتغيرين، وهما أسرع الأشياء تغيراً وتكدراً، ولو تأمل العاقل في هذا لعرف حقيقة ذلك، قضاء الأرب يتلاشى ويضمحل بلحظات، والطعام إنما يستسيغه بلحظات، حينما يأكل، يمضغه فقط، وقت المضغ، ثم لا يجد له بعد ذلك طعماً إذا أكله، أنتم لا تجدون الآن لذة مما أكلتم في البارحة، أو تسحرتم عليه، أصحاب أعظم اللذات من هذه اللذات الفانية لا يجدون منها الآن شيئاً.

تفنى اللذاذةُ ممن نال صفوتَها*** من الحرام ويبقى الإثمُ والعارُ

تبقى عواقبُ سوء من مغبّتها*** لا خيرَ في لذة من بعدها النارُ

تفنى اللذات من المطعوم والمشروب والمنكوح والملبوس، وكل شيء، ويبقى العمل.

وقوله تعالى: {وَكَأْسًا دِهَاقًا} [النبأ: ٣٤] قال ابن عباس: مملوءة متتابعة، وقال عكرمة: صافية، وقال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: {دِهَاقًا} [النبأ: ٣٤] المَلأى المُتْرعة.

هذا من ألوان النعيم: حدائق وبساتين في غاية النضارة والحسن، بأحسن رونق، وأجمل صورة، وزوجات في غاية الجمال، كواعب في سن متقاربة، وكأس صافية متتابعة مملوءة، هذه الكأس وصفها هنا بقوله: {دِهَاقًا}.

الكأس بعض أهل العلم يقول: لا يقال لها: كأس إلا إذا كان فيها الشراب، وبعضهم يقيده يقول: إنما يقال لها: كأس هكذا إذا كان فيها شراب الخمر، يقال: على أهل الكئوس أن يأمر بعضهم بعضاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول:

وكأسٍ شربتُ على لذّة *** وأخرى تداويتُ منها بها

يقصد كأساً من الخمر، فالكأس إذا أطلقت عند العرب فالغالب أنهم يقصدون بها الخمر؛ ولهذا فسره بعض السلف بالخمر.

{دِهَاقًا}، عن مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد: مَلأى مُتْرعة، وقال ابن عباس: مملوءة متتابعة.

ونقل عن عكرمة هنا وقال به زيد بن أسلم: صافية، وإن كان التفسير بهذا ليس من معنى {دِهَاقًا}، ولكن كأنه ذكره من جملة الأوصاف التي تكون معلومة في خمر الجنة، وإلا فليس هذا معنى {دِهَاقًا}، إنما معنى "دهاقاً" مملوءة متتابعة، بهذين الوصفين.

وقوله تعالى: {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥]، كقوله: {لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ} [الطور:٢٣] أي: ليس فيها كلام لاغٍ عَارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص.

الضمير في: {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا} الأرجح أنه يعود إلى الجنة، وبعضهم يقول: يعود إلى الخمر؛ لأن مجالس الخمر في الدنيا –نسأل الله العافية- مليئة باللغو والسب والشتم والهذيان؛ لأن العقول تذهب، وذكرتُ قديماً في بعض المناسبات كيف أن بعض أهل الجاهلية حرم على نفسه الخمر لهذه الآثار، وذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- عند تفسير قوله تعالى: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ٩٠] رجلا كان يسكر، ثم صار يتوضأ ببوله، يتمضمض ويستنشق ويغسل وجهه، ثم قال: الحمد لله الذي جعل الصلاة نوراً والماء طهوراً.

وآخر أفاق وهو ساقط واقع على الأرض فسأل أهله: ما الذي أوقعني هنا؟ قالوا: طول الليل وأنت تقفز تريد أن تمسك القمر، فتعب ثم سقط، فلما أفاق عرف حاله.

فهذه آثار الخمر، وحمزة -رضي الله عنه- تعرفون لما سكر ونحر الجزور وشق كُلاها وتركها للناس يأخذون من لحمها، وكانت لعلي – رضي الله عنه -، وقال للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولعلي -رضي الله عنه-: هل أنتم إلا أعبد لأبي؟ وهو في حال السكر.

وفي عصرنا هذا أحد الذين تابوا من شرب الخمر صوّرته امرأته وهو يستفرغ، بعدما شرب الخمر، ويلعق -أعزكم الله- هذا الأذى، فلما رآه تاب وعرف أن هذه لا تجر إلى خير.

فقوله: {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥]، بعضهم يقول: في الخمر، يعني في مجالسها عند شربها. والأرجح: أنهم لا يسمعون في الجنة، وهذا أعم من الذي قبله، ويتضمنه، يعني: لا يسمعون في اللجنة لغواً، لا في مجالس الخمر، ولا في غيرها، هم لا يسمعون فيها اللغو؛ لأن الجنة بعيدة عن اللغو، وهذا ذكره الله -عز وجل- في سياق ذكر نعيم الجنة، فدل على أن اللغو خلاف النعيم، وأن مجالس اللغو من الشقاء، ينبغي للعاقل أن يحترز منها، وأن يتجنبها، وأن يتجنب أهلها، واللغو هو الكلام الباطل، فكل كلام باطل فهو لغو، فالجنة لا تسمع فيها إلا أطايب الكلام، فمن أراد السعادة والراحة والنعيم في الدنيا فإن من موجبات هذا النعيم أن يراعي ويلاحظ المجالس التي يجلس فيها، والمجلس إذا طال كان للشيطان نصيب فيه؛ ولهذا لا داعي للمجالس الطويلة، أو المجالس الكثيرة التي يجتمع فيها الناس، لربما بعضهم يجتمعون كل ليلة، ويفتخرون أنهم منذ خمس وعشرين سنة وهم يجتمعون كل ليلة، فالمجلس يكون بقدر الحاجة، ثم بعد ذلك يتفرقون، وإلا بعد ذلك يبدأ يحضر الشيطان، فيبحثون عن شيء يقولونه لا يجدون، فيبدأ بعضهم يعلق على بعض ليقضي الوقت، ويتكلم بكلام لا حقيقة له، أو يبحث عن أمور لا تعنيه فيتكلم بها، ومن ثَمّ فإن اللغو سواءً كان مكتوباً، يعني كان مقروءاً أو كان مسموعاً لا شك أن هذا من المنغصات، وينبغي على المؤمن أن يحترز من ذلك جميعاً، ونحن في كثير من الأحيان نجني على أنفسنا، بحيث إن الإنسان أحياناً يعمد إلى بؤر اللغو فيذهب إليها، يقول: أريد أن أعرف، إما أنه يرغب بسماع كلامهم، أو يقول: لأعرف ماذا يقولون، ثم يتنغص ويتكدر، يعني هذه الأماكن أو هؤلاء الذين يكتبون -لا سيما اللغو الذي يكون بأسوأ صوره وأشكاله- ممن يقدحون في الدين، في ثوابته وبأهل الإيمان، هذه جيفة منتنة، فيعمد إلى صفحة هذا أو يضيفه عنده، فيكون كالجيفة التي يُقلّبها، ويزداد النتن.

{وَلَا كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥]، يعني لا يُكذّب بعضهم بعضاً كما يقول ابن جرير، يعني: لا يسمعون تكذيباً، وليس في الجنة إلا الصدق والحسن بجميع صوره وأشكاله، مما يتصل بالمسموع أو المرئي أو المطعوم أو المشموم، أو غير ذلك من أنواع الحسن والكمال واللذة والنعيم والسرور والحبور والسعادة.

إذا كان الإنسان في مجلس كلما قال شيئاً كُذِّب وشُكك في كلامه، أو كلما كتب تغريدة تصدى له سفيه وقذفه بحجر، وكلما قدم لهم نفيسة من هذه النفائس، وفائدة من هذه الفوائد، ونصيحة من هذه النصائح تصدى له السفهاء، فما الحاجة لمثل هذا كله، وهذا العناء لقوم بهذه المثابة؟، أرح نفسك، وأقبل على ما ينفعك، فهنا في الجنة {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥] ما في أحد يشكك في كلامه، أو أحد يكذبه، وهذا لا شك من أعظم النعيم.

وقوله: {جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا} [النبأ: ٣٦] أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله ومَنِّه وإحسانه ورحمته؛ {عَطَاءً حِسَاباً} أي: كافياً وافياً شاملاً كثيراً؛ تقول العرب: "أعطاني فأحسبني" أي: كفاني، ومنه "حسبي الله"، أي: الله كافيّ.

ابن كثير -رحمه الله- جمع المعاني التي يذكرها أهل العلم في تفسير {حِسَاباً}، قال: هذا النعيم الذي أعطاهم إياه جزاءً منه على أعمالهم، وهو أيضاً كما قال الله: {عَطَاء حِسَابًا} أعطاهموه بفضله، ومنّه، وإحسانه، ورحمته، ((لن يدخل أحدكم الجنة بعمله))[٤]، فالعمل مجرد سبب، وإلا فإن رحمة الله -عز وجل- هي الأصل في ذلك، فإن الأعمال لا تؤهل لدخول الجنة بمجردها، ولكن مع رحمة الله تعالى.

قال: {عَطَاء حِسَابًا} أي: كافياً وافياً شاملاً كثيراً، فكرر الكفاية، وذكر الكثرة، ولهذا تجد أن بعضهم كابن قتيبة فسره بالكثرة {عطاءً حساباً} أي: كثيراً، وابن جرير يقول: {عطاءً حساباً} أي: محاسبة لهم على أعمالهم.

فأعطاهم الله هذا العطاء الكثير الذي كفاهم به، أعطاهم عطاءً كثيراً فكفاهم وأرضاهم، {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} [المائدة: ١١٩].

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً * إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً}. [النبأ: ٣٧- ٤٠].

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأنه رب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء.

قوله: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النبأ: ٣٧] يعود إلى قوله: {جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا} [النبأ: ٣٦]، فالأولى مجرورة، وجاءت الثانية تابعة لها، وهذا العطاء والجزاء هو من معاني الربوبية.

---

[٤] - أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٩٨/٨)، رقم: (٦٤٦٤).

وقوله تعالى: {لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً} [النبأ: ٣٧] أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ} [هود: ١٠٥].

{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} [النبأ: ٣٧] قال: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، وهذا هو المتبادر، وبعضهم يقول: لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم الله -تبارك وتعالى-، وحمله الكسائي على الشفاعة، {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} [النبأ: ٣٧] لا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه، وهذا كله صحيح، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥] يعني: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، وكذلك أيضاً لا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [هود: ١٠٥].

وابن جرير -رحمه الله- قال بهذا الذي قال به ابن كثير: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، وهذا يشمل الشفاعة والسؤال، وغير ذلك مما ذكر.

وقوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ} [النبأ: ٣٨]. المراد بالروح هاهنا هو جبريل، قاله الشعبي، وسعيد بن جبير، والضحاك، كما قال -عز وجل-: {نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال مقاتل بن حيان: الروح: أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب -عز وجل-، وصاحب الوحي.

على كل حال الأقوال في الروح كثيرة، بعضهم ذكر فيه ثمانية أقوال، وابن كثير هنا مضى على أن المقصود بالروح هو جبريل -صلى الله عليه وسلم-، وهو هنا مذكور مع الملائكة، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ} [النبأ: ٣٨]، فيكون باعتبار أن جبريل -صلى الله عليه وسلم- هو واحد من الملائكة، وهو الأشرف، فيكون من قبيل عطف العام على الخاص، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ}، فإفراد جبريل -صلى الله عليه وسلم- لكونه الأشرف من الملائكة -عليهم السلام-، وهذا يدل على عظمة هذا اليوم، فهؤلاء الملائكة الذين لا يذنبون ولا يعصون الله ما أمرهم، وهم من القرب من الله -عز وجل- بتلك المثابة فكيف بأهل الذنوب؟!، وإذا كان الملائكة العظام وهم بهذه القوة لا يستطيعون الكلام فكيف بغيرهم؟!، عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام))[٥]، فهذا ملك واحد، ومع ذلك لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، والله المستعان.

وقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ} [النبأ: ٣٨] كقوله: {لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ} [هود: ١٠٥]. وكما ثبت في الصحيح: ((ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل))[٦].

وقوله تعالى: {وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ: ٣٨] أي: حقاً، ومن الحق: "لا إله إلا الله"، كما قاله أبو صالح، وعكرمة.

---

٥ - أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في الجهمية (٢٣٢/٤)، رقم (٤٧٢٧).

٦ - أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} [القيامة: ٢٣] (١٢٨/٩)، رقم (٧٤٣٧)، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٦٣/١)، رقم: (١٨٢).

السلف يفسرون بالمثال، تجدون في كتب التفسير، {وَقَالَ صَوَابًا} قال: لا إله إلا الله، يعني: قال حقاً، ومن هذا الحق (لا إله إلا الله)، لكن هل المقصود أنه قاله في الآخرة، أذن له وقال صواباً، أو المقصود في الدنيا، يعني أنه يأذن لأهل الإيمان، وأما الكفار فيقول لهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨] ؟

يحتمل أن يكون من يؤذن لهم هم أهل لا إله إلا الله وأهل الإيمان بهذا الاعتبار، وليس المقصود أنه قال صواباً يعني قال يوم القيامة: لا إله إلا الله، ولهذا قال: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨]، فلا يشفع للكافر، وهذا كأنه أقرب إلى السياق -والله أعلم-، فلا يجترئ أحد على الكلام لا الملائكة ولا غير الملائكة، ولا يتكلم أحد عنده إلا بما يكون حقاً وصواباً، ويرضاه الله -عز وجل-، وهذا كله يدل على عظمة الله -عز وجل-، ويدل على عظمة ذلك اليوم، وشدة ما فيه من الأهوال والأوجال.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ} [النبأ:٣٩] أي: الكائن لا محالة، {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا} [النبأ:٣٩] أي: مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه ومنهجاً يمر به عليه.

هذا يوم ثابت، حق، واقع لا محالة، فليختر الإنسان لنفسه، {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}، جمع الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بين المعنيين، فبعضهم يقول: {مَآبًا}، أي: مرجعاً؛ لأن الأوب بمعنى الرجوع، وبعضهم يقول: طريقاً إلى الله، يسلكه ليصل إلى ربه -تبارك وتعالى-، فجمع الحافظ بين هذين المعنيين، وهما متلازمان على كل حال.

وقوله تعالى: {إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا} [النبأ:٤٠] يعني: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آت آت.

{إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا}، قتادة يقول: عذاب الدنيا، ومقاتل يقول: يوم بدر؛ لأنه ذكر القرب، وابن كثير يقول: يوم القيامة؛ لأن كل ما هو آت قريب، وهذا هو الأقرب؛ ولهذا قال بعده -وهي القرينة التي ترجح هذا القول-: {يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [النبأ: ٤٠] بعضهم يقول: الكافر، وبعضهم يقول: كل أحد، {وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠]، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]، فهذا اليوم ينبأ فيه الإنسان بكل شيء، {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]، أعماله التي عملها في الماضي، والأعمال التي تركها بعد موته يُستنّ بها، أو مما كان يريد أن يعملها.

{يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [النبأ:٤٠] أي: يعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، كقوله تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً} [الكهف: ٤٩]، وكقوله تعالى: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣].

{وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠] أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خُلِقَ، ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدي الملائكة السَّفَرة الكرام البَرَرة، وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً، فتصير تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: {يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} أي: كنت حيواناً

فأرجع إلى التراب، وقد ورد معنى هذا في حديث الصُّور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هُرَيرة، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما.

{يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠]، هنا العلماء ذكروا فيها أقوالاً ثلاثة، بعضهم يقول: حينما ينظر إلى الحيوانات بعدما يقتص بعضها من بعض، فيقول الله لها: كوني تراباً، فيتمنى لو أنه يصير إلى هذه الحال، وهذا هو الأرجح الذي دل عليه الحديث، والقرآن يفسر بالسنة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وبعضهم يقول: هذا في البرزخ، يعني: يتمنى لو كان تراباً في قبره ولم يبعث، وهذا لا يخلو من بعد.

وبعضٌ يقول: يتمنى لو أنه بقي على أصله؛ لأن أصل الإنسان من تراب، يعني: أني لم أخلق أصلاً، الله خلق بني آدم من تراب، فيقول: يا ليتني كنت تراباً.

فهنا أسوأ حالات الكافر حينما يتمنى أنه كان تراباً، لو كان بمنزلة هذه الحيوانات التي تصير تراباً، فتنقشع عنه تلك الحجب، وتترحل عنه تلك السكرة التي كان فيها في الدنيا، قد كان في حال من البغي والعتو على الله -عز وجل-، والتمتع بأنواع اللذات، والأذى لأهل الإيمان، عند ذلك يتمنى لو كان تراباً، هذه أمور يقصها الله -عز وجل-، ويصفها بأوصاف دقيقة، في غاية الدقة، يبين فيها ما يصير إليه الناس، وماذا يقولون، فحري بالعاقل أن يتبصر ويتأمل، ويقف عندها، وينظر ويعرض نفسه على هذه الأوصاف، فهذا حقيقة التدبر للقرآن، وليس من لازم التدبر أن الإنسان يبحث عن معانٍ غريبة يرفع الناس إليها أبصارهم، ويستنتج استنتاجات، فليس التدبر محصوراً في هذا كما يظنه بعض الناس، فيتتبعون ويبحثون عن أشياء غريبة، ثم أحياناً يأتون بأشياء غير صحيحة، متكلفة لا يحتملها اللفظ، بل التدبر أن يقرأ الإنسان هذا، ويعرض نفسه على هذه الأمور، كيف سيكون حاله، ماذا يتمنى في الآخرة، على أي وصف سيكون قدومه على الله -عز وجل.

آخر تفسير سورة النبأ.